الفصل الحادي والثلاثون

فيه كتاب العلم [١] وتفضيله، وأوصاف العلماء

وذكرُ فضلِ علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طرق العلماء من السلف الصالح، وذكرُ بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم، والفرقُ بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا والآخرة، وفضلُ أهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا، ووصفُ العلم، وطريق التعليم، وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام، وبابُ ذكر ما أحدث الناس من القول والفعلِ فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيانُ فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذيرُ من الرأى، وذكر معنى قول النبى ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كُلِّ مُسْلِم»، وفى الحديث الآخر: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ؛ فإنَّ طَلَبَ العلمِ فَرِيضَةٌ علَى كُلِّ مُسلِم»[٢].

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى: علم حال العبد من مقامه الذى أُقيمَ فيه، بأن يعلم أحدُكم حالَه الذى بينه وبينَ اللهِ عزّ وجلّ فى دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعضُ العارفين: معناهُ طلبُ علمِ المعرفةِ، وقيامُ العبدِ بحكمِ ساعتِه، وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره.

وقال بعضُ علماء الشام: إنما عُنى به طلبُ علم الإخلاص، ومعرفة آفاتِ النفسِ ووساوسها، ومعرفةُ مكايد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضةٌ كله من حيث كان الإخلاصُ فى الأعمالِ فريضةً، ومن حيث أُعلم بعداوة إبليس، ثم أُمر بمعاداته.

---

(١) انظر: الإحياء، كتاب العلم، ١/ ٤ وما بعدها.

(٢) ليس فى (ك) من هذا العنوان إلا قوله. «كتاب العلم».

وذهب إلى هذا القول: عبد الرحيم بن يحيى الأرموى، ومن تابعه[1].

وقال بعضُ البصريين فى معناه: طلبُ علمِ القلوب ومعرفةُ الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنّها رسُل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدوّ والنفس، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدةُ نفسه فى نفيها. ولأنها أولُ النيةِ التى هى أولُ كلِّ عملٍ، وعنها تظهرُ الأفعالُ، وعلى قدرِها تضاعف الأعمالُ؛ فيحتاج أن يُفرِّقَ بين لِمَّةِ المَلَكِ ولمةِ العدوّ، وبين خاطرِ الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وقوادحِ العقل؛ ليميز بذلك الأحكام.

وهذا عند هؤلاء فريضةٌ. وهو مذهبُ مالكِ بن دينار، وفرقد السنجى، وعبد الواحد بن زيد، وأتباعهم من النُّسَّاك، وقد كان أستاذُهم الحسنُ البَصرى يتكلم فى ذلك، وعنه حملوا علومَ القلوب.

وقال عبَّادُ أهل الشام: معناه: طلبُ علم الحلال فريضة، إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيقِ آكل الحرام، وقد جاء فى خبر مفسر: «طلب الحلال فريضةٌ بعد الفريضة». ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحبيب بن حرب.

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة: معناهُ: طلب علم الباطن فريضةٌ على أهله، قالوا: وهذا مخصوصٌ لأهل القلوب ممن استعمل به، واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين؛ ولأنه جاء فى لفظ الحديث: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» فمعناه: اطلبوا علم اليقين، وعلمُ اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامُه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله ﷺ: «وعِلمُ باطنٍ فى القَلْبِ»، وهو العلم النافع، فهذا تفسير ما أُجْمِل فى غيره.

وقال جُنْدُب: كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن،

(١) فى (ك): «عبد الرحيم الأموى وعبد الواحد بن زيد».

فازددنا إيمانًا، وسيأتى زمانُ قومٍ يتعلَّمون القرآن قبل الإيمان.

يعنى: تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نُسَّاك أهل البصرة.

وقال بعضُ السلف: إنّما معناهُ: طلبُ علمٍ ما لم يَسعْ جهلُه من علم التوحيد وأصولِ الأمر والنهى، والفرقِ بين الحلالِ والحرام؛ إذ لا غايةَ لسائرِ العلوم بعد ذلك، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليمُ ما زاد على ما ذكرناه فرضًا، وإنما فيه فضلٌ أو ندبٌ.

وقال بعض فقهاء الكوفة: معناه: طلبُ علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افتُرض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يتّجر فى سوقنا هذا إلا من تفقَّه وإلا أكَلَ الربا شاء أم أبى. وكما قيل: تفقَّه ثم اتَّجِرْ. ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان: هو أن يكون الرجلُ فى منزله فيريد أن يعمل شيئًا من أمر الدّين، أو يخطر على قلبه مسألةٌ لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبّد، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل، فلا يَسعُه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه، ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه، ويخرج، فيسألَ عن أعلم أهل بلده، فيسأله عن ذلك عند النّازلة، فهذا فريضةٌ. وحُكى هذا القول عن ابن المبارك، وبعض أصحاب الحديث.

وقال آخرون: يعنى: طلبُ علم التوحيد فريضة.

وإنّما اختلفوا فى كيفيةِ الطلب، وماهية الإصابة. فمنهم من قال: من طريق الاستدلال والاعتبار. ومنهم من قال: من طريق البحث والنظر. ومنهم من قال: من طريق التّوفيقِ والأثر.

وقالت طائفة من هؤلاء: إنما أراد طلبَ علمِ الشبهاتِ والمشكلاتِ إذا سمعها العبد وابتُلى بها، وقد كان يسعه تركُ الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع فى وهمه، ولا يحيك فى صدره شىء من

الشبهات، فيسعه تركُ البحث، فإذا وقعَ فى سمعه شيءٌ من ذلك، ووقر فى قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك، وقَطْعُه، ومعرفةُ تمييز حقّه من باطله، لم يحلَّ له أن يسكت عليه؛ لئلا يعتقد باطلاً أو ينفى حقًا، فافتُرض عليه طلبُ ذلك من العلماء به، فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل. ولا يقعد عن الطلب، فيكون مقيمًا على شبهةٍ فيتبع الهوى، أو يكون شاكًا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السُّنّة ومذهبِ الجماعة، وهو لا يعلم.

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه: اللّهم أرنا الحقَّ حقًا فنتبعَه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبَه، ولا تجعلْ ذلك متشابهًا علينا فنتبع الهوى.

وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى[١]، وداود بن على[٢]، والحسين الكرابيسى، والحارث بن أسد المحاسبى[٣]، ومن تابعهم من المتكلمين.

فهذه أقوالُ العلماء فى معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن عِلْمِنَا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى، إلا أهل الظاهر منهم، فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأوّلوه على علمهم، ولعمرى إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل واحد بالآخر؛ كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

---

(١) أستاذ الجنيد، أحد الأئمة المجتهدين، قال عنه أحمد بن حنبل: «أعرفه بالسُّنّة منذ خمسين سنة، وهو عندى فى صلاح الثورى»، توفى سنة ٢٤٠هـ. انظر: خلاصة تذهيب الكمال، ص١٥.

(٢) هو داود بن على بن خلف، أبو سليمان البغدادى، ولد بالكوفة سنة مائتين، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وأصله من أصفهان، توفى سنة ٢٧٠هـ. انظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٩٣.

(٣) أستاذ أكثر البغداديين، وهو من أهل البصرة، له مؤلفات فى الرقائق كثيرة، مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر ترجمته فى: حلية الأولياء ١٠/ ٧٣ ـ ١٠٩، وطبقات الصوفية، ص ٥٦ ـ ٦٠.

وهؤلاء المختلفون فى الأقوال مُجمعون على أنه ﷺ لم يُرد بذلك طلبَ علم الأقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يُخلى من ذلك من يُقيمه بحفظه.

والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر ـ والله أعلم ـ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ» يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بُنى الإسلام عليها من حيث لم يُفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأولُ العملِ العلمُ به، فصار علمُ العملِ فرضًا من حيث افتُرض العمل.

فلمّا لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس، فصار طلبُ علمِ هذه الخمس فرضًا؛ لأنه فرضُ الفرضِ، وعلم التوحيد داخل فيها؛ لأنه فى أوّله شهادة أن لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته[1]، ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، كلّه داخل من علم ذلك فى شهادة: «أن لا إله إلا الله».

وعلمُ الإخلاصِ داخلٌ فى صحة الإسلام؛ إذ لا يكون مسلمًا إلا بإخلاص العمل، لقوله ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قلبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العملِ لله...»، فبدأ به واشترطه للإسلام.

والأصل فى هذا أنه لم يُرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلومًا بإجماع الأمة، إنه لم يَعْنِ بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو، أو الشعر، أو المغازى، وهذه تسمى علومًا؛ لأنها تكون معلومة، وأربابها علماء بها، إلا أن الشرعَ لم يُرد بالأمر بمقتضاها، والأمة مجمعةٌ أيضًا أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تُسمى علومًا عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان.

والخبرُ جاء بلفظ العموم، بذكر الكلية، وبمعنى الاسم، فقال: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ» ثم قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ» بعد قوله: «اطْلُبُوا العِلْمَ» فكان هذا على

(١) عبارة (ك): «وعلم التوحيد داخل فيها، لأنه فى أولها فى قوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وهى شهادة أن لا إله إلا الله. فطلب علم لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته».

الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالألف واللام إليه، فإذا بطلت هذه الوجوه صحّ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلمِ فَرِيضةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ» أى طلب علم ما بُنى الإسلام عليه، فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابى حين سأله: أخبرنى ماذا افترض الله تعالى علىَّ. وفى لفظ آخر: أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به. فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت. فقال: «هل علىَّ غيرها؟ فقال: لا إلا أن تطوع. فقال: والله لا أزيد عليه شيئًا، ولا أنقص منه شيئًا. فقال: أفلحَ ودخلَ الجنةَ إن صدق»، فكان علمُ هذه الخمس فريضةً من حيث كان معلومه فريضة إذ لا عمل إلا بعلم.

وقد قال عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال فى مثله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. وقال: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ من علمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ [الأنعام:١٤٨]. وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ علمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨ ـ ١٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلمِ الله وَأَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤]. وقال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ثم قال مجملاً: «طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ» ثم وكده بقوله ﷺ: «على كلِّ مُسْلِمٍ». فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل أنَّهُ مَرَّ برجلٍ والناسُ مجتمعون عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال: بماذا؟ قالوا: بالشعر والأنساب وأيام العرب؟ فقال: «هذا علْمٌ لاَ يَضُرُّ جهلُه»، وفى لفظ آخر: «علْمٌ لا ينفعُ وَجَهْلٌ لا يَضُرُّ». وروينا فى الخبر: «إنّ من العلم جهلاً وإنّ من القول عيًا». وفى

الخبر الآخر: «قليلٌ من التوفيق خيرٌ من كثيرٍ من العلم». وفى خبر غريب: «كُلُّ شَىءٍ يَحتَاجَ إلى العِلْم، والعِلْمُ يَحتَاجُ إلى التَّوْفِيقِ». والخبر المشهور قوله ﷺ: «أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ». فسماه علمًا إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه.

وقد روينا فى خبر: «إن الشيطان ربمَا سَبقكم بالعلم. قلنا: يا رسول الله، كيف يسبقنا بالعلم؟ قال: يقولُ: اطلب العلمَ، ولا تَعْمَلْ حتى تعلمَ، فلا يزالُ فى العلم قائلاً وللعمل مسوِّفًا حتى يموتَ وما عَمِلَ».

ففى هذا الخبر دليلان؛ أحدهما: أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة، ولا قربة فى طلبه من الله. والثانى: أن العلم المفضلَ المندوبَ إليه إنما هو الذى يقتضى العمل، لأن النبى ﷺ لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به، ألا تسمع إلى قوله ﷺ فى الخبر الآخر: «فَضْلُ مَنْ عَلِمَ أحَبُّ إلىَّ مِنْ فَضْلِ مَنْ عَمِلَ، وَخَيْرُ دِينكُمُ الوَرَعُ».

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قُبض رسولُ الله ﷺ عن ألوف من صحابته، كلُّهم علماء بالله، فقهاء عن الله تعالى، أهلُ رضوان من الله تعالى، ولم ينصِّب واحدٌ نفسه إلى الفتيا، ولا حُملت عنه الأحكامُ والقضايَا، إلا بضعة عشر رجلاً.

وكان ابن عمر إذا سُئل عن الفتيا قال: اذهب إلى الأميرِ الذى تقلّد أمورَ الناس فضَعْها فى عنقه. ورُوِى ذلك عن أنس، ثم جماعة من الصحابة والتابعين بإحسان.

وكان ابن مسعود يقول: إن الذى يفتى الناسَ فى كل ما يستفتونه لَمجنونٌ.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل، فيُجيب عن مسألةٍ،

ويسكتُ عن تسعةٍ. وكان ابن عباس على ضدِّ ذلك، كان يُسأل عن عشرة فيجيب عن تسعة ويسكت عن واحدة.

وكان من الفقهاء من يقول «لا أدرى» أكثر من أن يقول «أدرى». منهم: سفيان الثورى، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث، رضى الله عنهم. وكانوا فى مجالسهم يجيبون عن بعضٍ ويسكتون عن بعض، ولم يكونوا يجيبون عن كل ما يُسألون عنه.

وروينا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: أدركتُ فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحدٍ يُسأل عن حديثٍ أو فتيا إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه ذلك.

وفى لفظ آخر: كانت المسألةُ تُعرض على أحدهم فَيَرُدُّها إلى الآخر، ويردُّها الآخر للآخر، حتى ترجعَ إلى الذى سُئل عنها أول مرة.

وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد رويناه مسندًا: لا يفتى الناسَ إلا ثلاثةٌ: أميرٌ أو مأمورٌ أو متكلِّف.

تفصيل ذلك: أن الأمير هو الذى يتكلم فى علم الفتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يُسألون ويفتون. والمأمور: الذى يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه، ويستعين به لشغله بالرعية. والمتكلف: هو القاصُّ الذى يتكلم فى القصص السالفة، ويقصُّ أخبار مَنْ مضى؛ لأن ذلك لا يُحتاج إليه فى الحال، ولم يُندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كُرِه القَصَصُ، فصار القاصُّ من المتكلفين.

وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه: «لا يتكلم على الناس إلا ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو مُراءٍ».

فكان قولهم أمير: هو المفتى فى الأقضية والأحكام كما ذكرنا آنفًا، ومعنى مأمور: هو العالم بالله عزّ وجلّ، الزاهد فى الدنيا، يتكلم فى علم الإيمان واليقين، وفى علم القرآن، والحث على مصالح أعمال الدين بأمر من الله تعالى،

أذن الله تعالى له فى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]. وقد كان أبو هريرة وغيره يقول: لولا آيتان فى كتابِ الله تعالى ما حدَّثْتُكم بحديث أبدًا، ثم يتلو هذه والآية التى قبلها، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَتَى اللهُ تَعالى عَالِمًا عِلْمًا إلاَّ أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الميثاقِ مَا أَخَذَ عَلى النَّبِيِّينَ أنْ يُبَيِّنَهُ وَلا يَكْتُمَهُ».

وأما المرائى: فهو المتكلمُ فى علوم الدنيا الناطقُ عن الهوى، يستميل بذلك قلوبَ الناس، ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها.

وقال بعض العلماء: كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة، والوديعة، والوصية، والفتيا. وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلَّهم علمًا، وأشدُّهم دفعًا لها وتوقفًا عنها أورعهم.

وقال بعض السلف: كان شغلُ الصحابة والتابعين بإحسانٍ فى خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثًا: أمرٌ بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكْرُ الله تعالى». وقال الله أصدق القائلين: ﴿لاَ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إصلاَحٍ بَيْنَ النَّاس﴾ [النساء:١١٤].

ورأى بعضُ أصحاب الحديث بعضَ فقهاء الكوفة من أهل الرأى بعد موته فى المنام قال: فقلتُ له: ما فعلتَ فيما كنتَ عليه من الفتيا والرأى؟ قال: فكَربَ وجهه، وأعرض عنى، وقال: ما وجدناه شيئًا، وما حَمِدْنا عاقبتَه.

وحدَّثونا عن على بن نصر بن على الجهْضَمى، عن أبيه، قال: رأيتُ الخليل بن أحمد فى النوم بعد موته فقلت: ما أجد أعقل من الخليل لأسألنَّه، فقال لى: أرأيتَ ما كنَّا فيه؟ فإنّى لم أر شيئًا، ما رأيتُ أنفعَ من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وحدَّثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعضَ العلماء فى المنام فقلت له: ما فعلتْ تلك العلوم التى كنا نجادلُ فيها ونناظر عليها؟ قال: فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت[1] كلها هباءً منثورًا، ما انتفعت إلا بركعتين حصلتا لى فى جوف الليل.

وحُدِّثتُ عن أبى داود السجستانى قال: كان بعضُ أصحابنا كثيرَ الطلب للحديث، حسنَ المعرفة به، فمات فرأيته فى المنام، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فسكتَ. فأعدتُ عليه، فسكت. فقلت: غفر الله لك؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: الذنوب كثيرة، والمناقشة دقيقة، ولكن قد وُعدت بخير، وأنا أرجو خيرًا. قلتُ: أى الأعمال وجدتَها فيما هناك أفضل؟ قال: قراءة القرآن، والصلاة فى جوف الليل. قلتُ: فأيما أفضل ما كنت تقرأ أو تقرئ؟ فقال: ما كنت أقرأ. قلتُ: فكيف وجدتَ قولَنا: فلانٌ ثقةٌ، وفلانٌ ضعيفٌ، فقال: إن خَلَصتْ فيه النيةُ لم يكن لك ولا عليك.

وحُدِّثتُ عن بعض الشيوخ قال: حدثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال: أُريت فى منامى كأنى فى طريق أمضى إذ صادفنى رجل، فأقبل علىَّ وهو يقول: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأرضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الانعام:١١٦]، فقلتُ له: لى تعنى؟ فقال: لك، ولذاك الذى خَلْفك. فالتفتُ فإذا سَرِىٌّ رحمه الله، فأعرضتُ عن الرجل، وأقبلتُ على السَّرِىِّ وقلت: هذا أستاذنا ومؤدِّبنا الذى كان يؤدبنا فى الدنيا، ثم قلتُ له: يا أبا الحسن إنك قد صرت إلى الله تعالى فأخبرنا بأى عمل تقبَّله الله تعالى؟ فأخذ بيدى، ثم قال: تعالَ، فجئتُ أنا وهو إلى بَنِيَّة مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها إذ أشرف علينا من البَنِيَّة شخص، فأضاء ذلك الموضعُ منه، فأومأ سرِىٌّ إليه، وأشالنى نحوه، وكان سرِىٌّ قصيرًا، وأنا أيضًا قصير، فمد ذلك الشخص الذى كان فوق البَنِيَّة يده فأخذنى، فشالنى إليه، فلم أقدر أفتح عينى من أنوار كانت فى ذلك المكان. ثم قال لى: قد سمعتُ كلامك مع الشيخ،

(١) طاح الشىء: فَنِىَ وذهب.

كل خُلُق فى القرآن محمود تَفْعَلُه، وكل خُلُق فى القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدَّثونا عن سرى السقطى قال: كان شابٌّ يطلب علمَ الظاهرِ ويواظبُ عليه، ثم ترك ذلك، وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد فى بيته يتعبَّد، فقلت له: قد كنتَ حريصًا على الطلب لعلم الظاهر، فما بالك انقطعت؟ قال: رأيتُ فى النوم قائلاً يقول لى: كم تضيِّع العلم ضيَّعك الله، فقلتُ: إنى لأحفظه. فقال: إنّ حفظَ العلمِ العملُ به، فتركتُ الطّلب، وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليس العلم بكثرةِ الروايةِ وإنّما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء: إنما العلم نور يقذفه الله تعالى فى القلب.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإنّ السفهاءَ همّتهم الرواية، وإنّ العلماءَ همتهم الرعاية. وروينا عنه أيضًا أنه قال: إن الله لا يعبأ بذى قولٍ ورواية، إنّما يعبأ بذى فهم ودراية.

وقال أبو حصين: إنّ أحدَهُم ليفتى فى مسألة لو وردَتْ على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمعَ لها أهلَ بدر. وقال غيره: يُسأل أحدُهم عن الشىء، فيُسرع للفتيا، ولو سُئل أهل بدر عنها لأعْضَلَتْهُم.

وقال عبد الرحمن بن يحيى الأسود، وغيره من العلماء: إن علم الأحكام والفتاوى كان الولاة والأمراء يقومون به، وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضَعُف الأمر، وعجزت الولاةُ عن ذلك؛ لميلهم إلى الدنيا، وشُغلِهم بالحروب عنها، فصاروا يستعينون على ذلك بعلماءِ الظاهرِ، وبالمفتين فى الجوامع، فكان الأميرُ إذا جلس للمظالم قعدَ عن يمينه وشماله مفتيان، يرجع إليهما فى القضاء والأحكام، ويأمر الشُّرَط بمثل ذلك. فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء؛ ليستعين بهم الولاةُ على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون؛ رغبةً فى الدنيا وطلبًا للرياسة. ثم اختلف الأمر بعد ذلك؛ حتى تركت الولاةُ الاستعانةَ بالعلماء، ومما

يدلك على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عقبة بن عامر: ألم أُخبر أنك تفتى الناس، ولستَ بأمير ولا مأمور؟

وفى حديث أبى عامر الهروى قال: حججت مع معاوية، فلما قَدِمْنا مكة حُدِّث عن رجل يقضى ويفتى الناس؛ مولًى لبنى مخزوم، فأرسل إليه فقال: أُمِرتَ بهذا؟ قال: لا. قال: فما حملك عليه؟ قال: نفتى وننشر علمًا عندنا. فقال معاوية: لو تقدمتُ إليك قبل يومى هذا لَقطعتُ منك طابقًا[1]، ثم نهاه.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب، ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين، فإنهم تُجلَّى لهم أمورٌ صادقة. وقد كان عمر رضى الله عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم.

وفى الخبر: إذا رأيتم الرجل قد أُوتى صمتًا وزهدًا فاقتربوا منه فإنه تلقَّى الحكمة.

وقال بعض أصحاب الحديث: رأيت سفيان الثورى حزينًا، فسألته فقال وهو بَرِمٌ: ما صرنا إلا مَتْجرًا لأبناء الدنيا. قلت: وكيف؟ قال: يَلزمنا أحدُهم، حتى إذا عُرف بنا وحَمَلَ عنا جُعل عاملاً أو جابيًا أو قهرمانًا.

وكان الحسن يقول: يتعلم هذا العلمَ قومٌ لا نصيب لهم منه فى الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع.

وقال المأمون رحمه الله: لولا ثلاثٌ لخربت الدنيا: لولا الشهوةُ لانقطع النسلُ، ولولا حبُّ الجمع لبطلت المعايش، ولولا حبُّ الرياسة لذهب العلم.

فهذا كلُّه وصفُ علماء الدنيا وأهل علم الألسنة. وأما علماءُ الآخرة وأهلُ المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياعِهم من أهل الدنيا، وكانوا يَنتقصون علماء الدنيا، ويطعنون عليهم، ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبى ليلى: أدركت فى هذا المسجد مائةً وعشرينَ من الصحابة، ما سُئل أحدُهم عن حديث ولا استُفْتى فى فُتيا إلا وَدَّ أن صاحبه قد كفاه ذلك.

(١) الطابق: العضو من أعضاء الإنسان كاليد والرجل ونحوهما.

وقال مرة: أدركتُ ثلاثمائةً يُسأل أحدُهم عن الفتيا أو الحديث فيردُّ ذلك إلى الآخر، ويُحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون الفتيا فيما بينهم، ولم يكونوا إذا سُئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يُحيل على صاحبه ولا يسكت عن الجواب.

وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] فهم أهلُ الذكرِ لله تعالى، وأهلُ التوحيدِ والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يَتلقوْنَ هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقاه بعضُهم عن بعض بالألسنة، إنّما كانوا أهلَ عَمَلٍ وحسنِ معاملات. فكان أحدُهم إذا انقطع إلى الله تعالى، واشتغل به، استعمله المولى بِخدمته بأعمال القلوب. وكانوا عنده فى الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره. فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رُشْدَهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية، وعقولهم الزاكية، وهمَمِهم العالية. فآثرهم بحُسن توفيقه أن ألهمهم حقيقةَ العلم، وأطلعهم على مكْنونِ السِّر، حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عما عنه يسألون بحُسن أثَرة الله تعالى لهم، وبجميل أثره عندهم. فتكلموا بعلم القدرة، وأظهروا وَصْفَ الحكمة، ونطقُوا بعلوم الإيمان، وكشفوا بواطنَ القرآن.

وهذا هو العلمُ النافعُ الذى بين العبدِ وبين الله تعالى، وهو الذى يلقاه به، ويسأله عنه، ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال.

وعلى قَدْرِ علم العبد بربه تعالى تَرْجَحُ أعماله، وتُضاعَفُ حسناته، وبه يكون عند الله تعالى من المقرَّبين؛ لأنّه لديه من الموقنين، فهم أهلُ الحقائق الذين وصفهم علىٌّ عليه السلام وفضلهم على الخلائق، فقال فى وصفهم[1]:

(١) هذا من كلام الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فى: نهج البلاغة، بشرح الشيخ محمد عبده، ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤، يخاطب به كُميل بن زياد النخعى. وهناك بعض الاختلافات اليسيرة بين نص نهج البلاغة ونص القوت هنا. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدى، ص١١٢.

القلوبُ أوعية، وخيرُها أوعاها. والناس ثلاثة: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يَميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى رُكْن وثيق.

العلمُ خيرٌ من المال؛ العلم يحرسُكَ وأنت تحرس المال. والعلمُ يُزكيه العملُ، والمال تَنْقصُهُ النفقةُ. محبة العلم دِينٌ يُدان به، به يكسب [الإنسانُ][1] الطاعةَ فى حياته، وجميلَ الأُحْدوثة بعد مَوْته. العلمُ حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، ومنفعةُ المال تزول بزواله. مات خُزَّانُ الأمْوالِ وهُمْ أحياء، والعلماءُ باقون ما بقى الدهرُ.

ثم تنفَّس الصَّعَداء فقال: ها إنَّ ههنا علمًا جمًّا[2]، لو أجد له حَمَلَةً! بلى أجد لَقِنًا غيرَ مأمونٍ [عليه][3]، يستعمل آلةَ الدينِ فى طلب الدنيا، ويستطيل بنِعَم الله تعالى على أوليائه[4]، ويستظهر بحججه على خلقه أو منقادًا لأهل الحقّ[5]، ينزرع[6] الشكُّ فى قلبه بأوّل عارضٍ من شُبْهةٍ لا بصيرة له [فى أحنائه][7]، وليسا من رُعاة الدين فى شىء، ألاَ لا ذَا ولا ذاك. مَنْهُومٌ[8] باللذة، سَلِسُ القِيادة فى طلب الشّهوات، أو مُغرًى بجمع الأموال والادّخار، منقادٌ لهواه، أقربُ [شىء] شبهًا بهما الأنعامُ السّائمة. اللّهم هكذا يموت العلمُ إذا مات حامِلوه[9].

بل لا تخلو[10] الأرضُ من قائم لله تعالى بحجّة: إمّا ظاهرٌ مكشوف، وإما

---

(١) من النهج.

(٢) بعده فى النهج: «وأشار إلى صدره».

(٣) من نهج البلاغة.

(٤) فى النهج: «مستعملاً آلة الدين فى طلب الدنيا، ومستظهراً بنعم الله تعالى على أوليائه» وكلمة «آلة» ساقطة من المطبوعة وأثبتها من (ك).

(٥) فى (ك): «أو منقادًا لجهله».

(٦) فى النهج: «ينقدح».

(٧) من النهج.

(٨) فى (ط): «فمفهوم» وهى محرفة وأثبت ما فى (ك)، وفى النهج: «أو منهومًا».

(٩) عبارة النهج: «كذلك يموت العلم بموت حامليه».

(١٠) فى نهج البلاغة: «اللهم بلى، لا تخلو».

خائف مقهور؛ لئلا تبطل حجَجُ الله تعالى وبيِّناتُهُ، [وكم ذا؟ وأين أولئك؟][١]، أولئك الأقلُّون عددًا، الأعْظَمون قدرًا. أعيانُهم مفقودةٌ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة. يحفظ الله تعالى بهم حججَه، حتى يُودعَها نظراءَهم، ويزرعوها فى قلوب أشباهِهم. هجم بهم العلمُ على حقيقة الأمر[٢] فباشروا روحَ اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترَفُون، وأنِسُوا بما استَوْحَش منه الغافلون[٣]. صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالمحلِّ الأعلى، أولئك أولياءُ الله من خلقه[٤]، وعماله فى أرضه، والدعاةُ إلى دينه، ثم بكى، وقال: وا شوقاهُ إلى رُؤْيتهم[٥].

فهذه كلها أوصافُ علماءِ الآخرة، وهذه نعوتُ علمِ الباطنِ وعلمِ القلوب لا علم الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذُ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حَيْوَةَ بن عبد الرحمن بن غُنم عن معاذ[٦] قال: تَعَلَّمُوا العِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لله خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادةٌ، ومُدَارَسَتَهُ تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَه لمن لا يعلمُه صدقةٌ، وبَذْلَه لأهله قُرْبةٌ. وهو الأنيسُ فى الوحدة، والصاحبُ فى الخلوة، والدليلُ على السرّاء والضرّاء، والزيْنُ عند الأخلاَّء، والقريبُ عند الغُرباء، [ومعالمُ الحلال والحرام][٧]، ومنارُ سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقوامًا، فيجعلهم فى الخير قادةً وهداةً يُقتدى بهم، أدلّة فى الخير. تُقْتَصُّ آثارهم، وتُرْمَقُ أعمالُهم، ويُقْتدَى بفعالهم، ويُنتَهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة فى خلَّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، حتى كل رَطْب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر ونعامه، والسّماءُ ونجومها؛ لأن العلمَ حياةُ

(١) «كم» ساقطة من المطبوعة، وأضفت من نهج البلاغة «ذا»، و «أولئك» الأولى ليستقيم الكلام.

(٢) فى (ك): «حقائق اليقين» وفى نهج البلاغة: «حقيقة البصيرة».

(٣) فى النهج: «الجاهلون».

(٤) فى نهج البلاغة: «أولئك خلفاء الله فى أرضه».

(٥) انتهى الخبر بتمامه.

(٦) خبر معاذ بن جبل هذا وكلامه فى: الحلية ١/ ٢٣٩.

(٧) الزيادة من الحلية.

القلوب من العمى، ونورُ الأبصار من الظلم، وقوّةُ الأبدان من الضعف، يبلغ به العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجات العلى. والتفكّرُ فيه يُعدَل بالصيام، ومدارستُه بالقيام. به يطاع الله تعالى، وبه يُعبد، وبه يُوحَّد، وبه يُتورَّع، وبه تُوصَل الأرحام. العلم إمام، والعَمَلُ تابعُه، تُلْهَمُه السُّعداءُ، وتُحْرَمُه الأشقياء[1].

فهذه أوصاف علماء الآخرة، ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة: عمرُ بن عبد العزيز، فحدَّثونا عن زكريا بن يحيى الطائى قال: حدثنى عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله: أما بعد، فأشِرْ علىَّ بقومٍ أستعينُ بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: أما أهلُ الدين فلن يريدوك، وأما أهلُ الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشْراف فإنهم يصونون شرفهم أن يُدنِّسوه بالخيانة.

وكان الحسنُ يتكلمُ فى بعض علماء البصرة ويذمُّهم، وكان أبو حازمٍ وربيعةُ المدَنِيَّان يذمَّان علماءَ بنى مروان. وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة.

وكان الفضيلُ وإبراهيمُ بن أدهم ويوسفُ بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلَّم فيهم لأنّ السكوتَ أقربُ إلى السّلامة.

وكان بشر يقول: حدثنا بابٌ من أبواب الدنيا: إذا سمعتَ الرجلَ يقول: حُدثنا فإنّما يقول: أوسعوا لى.

وقد كان سفيانُ الثورى إمامَهُ منْ قَبْله يقول لأهلِ علم الظاهر: طلبُ هذا ليس من زاد الآخرة.

وقال ابن وهب: ذُكر طلبُ العلم عند مالك، فقال: إنّ طلبَ العلم لحسنٌ، وإن نشرَه لحَسنٌ، إذا صحَّت فيه النّية. ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تؤثرنّ عليه شيئًا.

(١) انتهى كلام معاذ، وهو كذلك فى الحلية مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

وقال أبو سليمان الدارانى: إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ، أو تزوّج، أو سافر فى طلب المعاش، فقد ركن إلى الدنيا[1].

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين، فهو مع كل مؤمن موقن حسنِ الإسلام. وهو مقامُه من الله، وحالُه بين يدى الله، ونصيبُه منه فى دَرَجات الجنة، به يكون من المقرَّبين عنده. والعلمُ بالله تعالى والإيمانُ به قرينان لا يفترقان. فالعلمُ بالله تعالى هو ميزان الإيمان، به يَستَبِينُ المزيد من النقصان؛ لأنّ العلمَ ظاهرُ الإيمانِ يكشفه ويظهره، والإيمانَ باطنُ العلمِ يهيجه ويشعله. فالإيمانُ مِداد العلم وبصره، والعلم قوّة الإيمان ولسانه. وضَعْفُ الإيمان وقوّتُه ومزيدُه ونقصه بمزيدِ العلمِ بالله عزّ وجلّ ونقصِه وقوّته وضَعفه.

وفى وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بنى، كما لا يصلح الزرعُ إلا بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمانُ إلا بالعلم والعمل.

ومَثَلُ المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمَثَل النّشا من الدّقيق من السويق من الحِنطة. والحِنطةُ تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك. والمشاهدةُ أعلى فروعه، كالحِنطة أصلُ هذه المعانى، والنّشا أعلى فروعِها.

فهذه المقامات موجودةٌ فى أنوار الإيمانِ يمدُّها علمُ اليقين.

ثم إنّ المعرفةَ على مقامين: معرفةُ سمعٍ، ومعرفةُ عِيان. فمعرفة السّمع فى الإسلام، وهو أنهم سَمِعوا به فعرفوه، وهذا هو التصديق من الإيمان. ومعرفةُ العِيان فى المشاهدة، وهو عين اليقين.

والمشاهدةُ أيضًا على مقامين: مُشاهدةُ الاستدلال، ومشاهدة الدليل عنها. فمشاهدةُ الاستدلالِ قبلَ المعرفةِ، وهذه معرفةُ الخبر، وهو فى السّمعِ؛ لسانُها

(١) يتحدث أبو سليمان عن مقامه هو، لكن طلب العلم والحديث والزواج لا يصدّ عن الوصول إلى أعلى المقامات؛ بل هى أمور مطالب بها أهل الله، إذ أمرت السنة بذلك. ومثل هذه الأقوال أورثت الجهل لكثير من أهل الطرق، وساعدت على ظهور البدع والابتداع. وأبو سليمان نفسه سيروى عنه ما يخالف هذه المقولة، فى كتاب العلم.

القول، والواجدُ بها واجدٌ بعلمٍ [وحدها][1] علمَ اليقين من قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٣]. فهذا العلم قبل الوجد، وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله ﷺ: «تَعلَّمُوا اليَقِين» أى جالسوا الموقنين، واسمعوا منهم علمَ اليقين؛ لأنهم علماؤه.

وأما مشاهدةُ الدليل: فهى بعد المعرفة التى هى العيان، وهو اليقين، لسانُه الوجدُ، والواجدُ بها واجدُ قُرْبٍ، وبعد هذا الوجدِ علمٌ من عينِ اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته. ومنه قوله ﷺ: «فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا فعلمت». فهذا التعليم بعد الوجدِ منْ عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء علماء الآخرة، وأهلُ الملكوت، وأربابُ القلوب، وهم المقرَّبون من أصحاب اليمين.

وعلمُ الظاهر من علم الملكِ، وهو من أعمالِ اللسان، والعلماءُ به موصوفون بالدنيا، وصالحوهم أصحابُ اليمين.

وجاء رجلٌ إلى معاذ بن جبل فقال: أخبرنى عن رجلين؛ أحدهما مجتهدٌ فى العبادة، كثيرُ العمل، قليلُ الذنوب، إلا أنّه ضعيف اليقين، يعتريه الشّك فى أموره. فقال معاذ: ليُحْبِطنّ شكُّه أعمالَه. قال: فأخبرنى عن رجلٍ قليل العمل، إلا أنه قوى اليقين، وهو فى ذلك كثير الذنوب. فسكتَ معاذٌ. فقال الرجل: والله لئن أحبط شكُّ الأوّلِ أعمالَ برِّه، ليُحبطنّ يقينُ هذا ذُنوبَه كلَّها. قال: فأخذ معاذ بيده، وقام قائمًا، ثم قال: ما رأيتُ فقيهًا هو أفقه من هذا[2].

وقد روينا معناه مسندًا قيل: يا رسول الله، رجل حسنُ اليقينِ، كثيرُ الذنوبِ، ورجلٌ مجتهدٌ فى العبادة، قليلُ اليقين. فقال: «ما من آدَميّ إلا وله ذُنوب، ولكن من كانت غريزتُه العقل، وسجيتُه اليقين، لم تضره الذنوب؛ لأنه كلّما أذنب تابَ واستغفر ونَدِم، فتُكَفَّر ذُنوبه، ويبقى له فَضْلٌ يَدْخل به الجنّةَ».

---

(١) من (ك). وعبارة (ط): «يعلم علم اليقين».

(٢) فى (ط): «ما رأيت الذى هو أفقه من هذا» وأثبت ما فى (ك).

وروينا فى معناه من حديث أبى أمامة عن رسول الله ﷺ: «من أقلِّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيامِ الليلِ وصيام النهار». وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى، لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عاملٌ حتى يقصر يقينُه. وقد يعمل [الرجلُ العملَ][(١)] الضعيفَ إذا كان متيقنًا أفضل من عمل[(٢)] القوى الضعيف فى يقينه. ومن يضعُف يقينُه تغلبه المحقِّرات من الإثم.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إن للتوحيد نورًا، وللشرك نارًا، وإن نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيِّئات الموحِّدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

واليقين على ثلاث مقامات[(٣)]:

يقين معاينة: وهذا لا يختلف خبره، فالعالم به خَبير، وهو للصدِّيقين والشهداء.

ويقين تصديق واستسلام: وهذا فى الخبر، والعالم به مُخبر مسلم. وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، كقوله تعالى جده: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الاحزاب:٢٢]. وقد يضعفُ هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويَقوَوْن بوجودها وجريان العادة، ويُحجبون بنظرهم إلى الأواسط، ويكاشَفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخَلْق، ويكون نَقْصُهُم ووحشتُهم بفقدهم. ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلوّنون بالخلاف؛ لتلوين الأشياءِ وتغيّرها [عَلَيْهم و][(٤)] نقصها.

المقام الثالث من اليقين: وهو يقينُ ظنٍّ يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوالِ العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفَقد الأدلّة وصمتِ القائلين. وهذا يقينُ الاستدلال، وعلوم هذا فى المعقول، وهو

(١) الزيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «العمل» وأثبت ما فى (ك).

(٣) وانظر فى اليقين أيضًا: مدارج السالكين ٢/ ٤١٥.

(٤) الزيادة من (ك).

يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى، وعلومِ العقل، والقياس، والنظر. وكلٌّ مُوقن بالله تعالى فهو على علمٍ من التوحيد والمعرفة، ولكنّ علمَهُ ومعرفته على قدر يقينه، ويقينَهُ من نحو صفاء إيمانه وقوّته، وإيمانَهُ على مقتضى معاملته ورعايته.

فأعلى العلومِ علمُ المشاهدة عن عينِ اليقين، وهذا مخصوصٌ للمقربين فى مقامات قربهم، ومحادثات مجالستهم، ومأوى أُنسهم، ولطيف تملُّقهم.

وأدنى العلومِ علمُ التسليم والقبول بعدم الإنكار، وفقدِ الشكوك. وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان ومزيدِ التصديق، وهذا لأصحاب اليمين.

وبين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلين[1].

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين فى العلوم

روينا فى الخبر: «العلمُ ثلاثةٌ: كتابٌ ناطقٌ، وسنةٌ قائمةٌ، ولا أدْرِى». وعن الشعبى أنه قال: لا أدرى نصفُ العلم. يعنى: أنه من الورع. وكان الثورى رضى الله عنه يقول: إنّما العلمُ الرّخصةُ من ثِقَة، فأما التشديد فكل أحد يحسنه. يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء، لأنّ الورعَ هو الجبنُ عن الإقدام، والهجومُ على الشبهات، والوقوفُ عند المشكلات بسكونٍ أو سكوت. واليقينُ هو الإقدامُ على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطعُ بالأمر على علم وخَبر.

فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم لا يُحسنه سواهم. كما قال على[2] عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية، وقدّمه أمامه يوم الجمل وجعل يقول له: أقدم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركزه بقائم رمحه. فالتفت إليه محمد ابنه فقال: هذه والله الفتنة المظلمة العمياء. فوكزه علىٌّ برمحه ثم قال: تقدَّم لا أُمَّ لك، أتكون فتنةٌ

(١) فى (ك): «عليين».

(٢) خبر الإمام على ليس فى المخطوط.

أبوك قائدها وسائقها؟!

والمرء إذا قال لا أدرى [تورّعًا][1] فقد عَمِلَ بعلمه، وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة مَنْ درى، وقام بحاله[2]، وعمل بعلمه فأظهره. فلذلك كان قول «لا أدرى» نصف العلم. ولأنّ حُسْنَ مَنْ سكتَ لأجلِ اللهِ تعالى تورُّعًا كحُسن من نَطَق لأجله بالعلم تبرُّعًا.

وقال على بن الحسين، ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالمُ قولَ «لا أدرى» أُصيبت مقاتلُه[3]. وقاله مالك والشافعى بعدهما.

واعلم أن مَثَلَ العلمِ والجهل فى تفاوت الناس فيهما مَثَلُ الجنون والعقل. والمجانين طبقات، كالعقلاء طبقات، وكذلك الجهالُ طبقات كالعلماء، فخصوصُ الجهال يشبهون عموم العلماء، فهم يشتبهونَ على العامة حتى يحسبوهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى، وكذلك العارفونَ يشتَبِهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء: العلمُ علمان؛ علمُ الأمراء، وعلمُ المتقين. فأما علم الأمراءِ فهو علم القضايا، وأما علمُ المتقين فهو علم اليقين والمعرفة.

وقد قال الله سبحانه فى وصف علم المؤمنين، وذكر علم الإيمان: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. فجعلَ المؤمنينَ علماءَ، فدلّ على أنّ العلمَ والإيمانَ لا يفترقان. والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع. فالعربُ إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا: فلان العاقل، والعالم، والأديب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ [النساء: ١٦٢]،

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «فقام بحاله» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ط): «مقالته» وأثبت ما فى (ك).

فالمؤمنون هم الراسخون فى العلم، والمقيمون والمؤتون، كله نعت للمؤمنين الراسخين فى العلم[1]؛ ولذلك انتصب قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ ، لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح، وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧]، فوصف العلماء بالإيمان، كما وصف المؤمنين بالعلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم:٥٦].

ومن هذا حديث أنس عن النبى ﷺ: «أُمَّتِى خَمْسُ طبَقات، كُلُّ طَبَقَةٍ أَرْبَعُونَ عَامًا، فَطَبَقَتِى وطَبَقَةُ أَصْحَابِى أَهْلُ العلمِ والإيمانِ، والذين يَلونَهُمْ إلى الثمانين أهلُ البرِّ والتقوى، والذين يلونَهم إلى مائة وعشرين أهْلُ التواصلِ والتراحم». فقرن العلمَ بالإيمانِ، وقَدَّمَهُمَا على سَائرِ الطَّبَقاتِ.

وقد قرن اللهُ سُبحانَهُ الإيمانَ بالقرآنِ وهو علْمٌ، كما قرنَ القرآنَ بالإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]. قيل: القرآنُ، وتكون الهاءُ عائدةً إلى الله تعالى فى أكثر الوجوه، كما قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى:٥٢]. فأهلُ الإيمانِ هم أهلُ القرآنِ، وأهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصتُه.

وقال المهدىُّ لسفيانَ بن الحسين لما دخل عليه، وكان أحدَ العلماء: أمِنَ العلماء أنت؟ فسكت، فأعَادَ عليه فسكتَ. فقيل: ألا تجيبُ أميرَ المؤمنينَ؟ فقال: يَسْأَلُنِى عن مَسْأَلَةٍ لا جَوَابَ لهَا: إن قلتُ لستُ بعالمٍ وقد قرأتُ كتابَ الله تعالى كنتُ كاذبًا، وإنْ قلتُ إنِّى عَالِمٌ كنتُ جاهلاً.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنسٍ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. قال: من لم يخشَ اللهَ تعالى فليس بعالمٍ، ألا ترى أن داود عليه السلام قال ذلك بأنك جعلتَ العلمَ خَشْيَتَكَ، والحكمة والإيمان بك، فما عَلِمَ مَنْ لم يَخْشَكَ، وما حكَمَ مَنْ لم يُؤمِنْ بك.

(١) كان ثمت اضطراب فى (ط) أصلحته من (ك).

وقد سَمّى عبدُ الله بنُ رواحةَ العلمَ إيمانًا، فكان يقولُ لأصحابِه: «اقعدوا بنا نُؤْمِنْ ساعةً» فيتذاكرون علمَ الإيمان.

وقد جعل اللهَ للمؤمنينَ سَمْعًا وبَصرًا وقلبًا، وهذه طرائقُ العلمِ التى يُؤخَذُ العلمُ منها ويوجدُ بها، وهى أصولُ العلمِ والنعم التى أنعم اللهُ على الخلقِ بها وطالبهم بالشكرِ عليها، فقال سبحانه: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]. فأثْبَتَ العلمَ بها بَعْدَ النفى بها له.

وقال تعالى فى وَصْفِ مَنْ لم يكُنْ مُؤمنًا ونَفَى الغُنية بالعلمِ بها: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُم ولا أبصَارُهُمْ وَلا أفئدَتُهم مِنْ شيءٍ إِذْ كانُوا يَجْحدُونَ بآيات الله﴾ [الاحقاف:٢٦]. فمَنْ آمنَ بآياتِ اللهِ تعالى أغنى عنه سمعُهُ وبصرُه وقلبُه، فكانت طُرقُ العلمِ[1] إليه.

وقال عزَّ وجلَّ فى معنى ذلك أيضًا: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾ [الإسراء:٣٦]. فلولا أنَّ العِلْمَ يقعُ بالسمعِ والبصرِ والقلبِ ما نهى عما لا يعلم هذه الأشياء. ففى النهى عن قَفْوِ ما لا يَعْلم هذه الأواسط ويتبعه إثباتُ العلم بها، فكلُّ مؤمنٍ هو ذو سمعٍ، وبصرٍ، وقلبٍ، [وكلُّ ذى سمع وبصرٍ وقلب][2] فهو عالمٌ بفضلِ الله ورحمته.

ومما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم وخصها به ثلاثة أشياء[3]:

[الأول:] تبقيةُ الإسنادِ فيهم يَأثُره خَلَفٌ عن سَلَفٍ، متصلاً إلى نبينا محمد ﷺ، وإلى من خلا من علمائنا. وإنّما كانوا فيهم يستنسخون الصحف، كلما

(١) فى (ك): «العلوم».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبت ما فى (ك).

(٣) جمع العلامة أحمد بن محمد القسطلانى ـ توفى ٩٢٣هـ ـ طائفة كبيرة من خصائص الأمة المحمدية، فى كتابه: المواهب اللدنية، انظر: ٢/٧٠٧ ـ ٧٣٥، تحقيق صالح أحمد الشافى، المكتب الإسلامى.

اختلقَتْ صحيفةٌ جُدِّدت، فكان ذلك أثَرَةَ العلم فيهم.

والثانى: حفظ كتاب الله تعالى المنزَّل عن ظهر غيب. وإنّما كانوا يقرؤون كتبهم نظرًا، ولم يُحفظ جميعُ كتابٍ أنزله الله تعالى قط غيرُ كتابنا، هذا إلا ما ألهمه الله تعالى عُزيرًا من التوراة بعد أن كان بختُنصَّر أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس. فلذلك قال سِبط من اليهود: إنّه ابن الله تعالى، عزّ عن ذلك علوًا كبيرًا، لما خصّه به، وأفرده من حفظِ جميع التوراة.

والثالث: أن كلَّ مؤمنٍ من هذه الأمة يُسأل عن علم الإيمان، ويُسمع قولُه ويُؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنّه. ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرهبان لا غير من الناس.

وزادها رابعةً على أمة موسى؛ عليه الصلاة والسلام: ثباتُ الإيمان فى قلوبهم، لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرك مع تقليب القلوب فى المعاصى. وكانت أمةُ موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى، فلذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الاعراف.١٣٨] بعد أن رأوا الآياتِ العظيمةَ؛ من انفلاق البحر، وسلُوكِهم فيه طرائق، وأنجَاهم من الغرق، وأهلك فرعون.

وروينا بعض الأخبار أن فى بعض الكتب المنزلة: يا بَنَى إسرائيلَ، لا تقولوا العلم فى السماء مَنْ ينزلُ به، ولا فى تُخوم الأرَضين مَنْ يصعد به، ولا من وراءِ البحارِ مَنْ يعبره يأتى به. العلمُ مجعولٌ فى قلوبكم، تأدّبوا بين يدىَّ بآداب الروحانيين، وتخلّقوا لى بأخلاق الصدِّيقين، أُظهر العلمَ فى قلوبكم حتى يغطّيكم ويغمركم.

وفى الإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تَعْمَلوا حتى تَعْمَلُوا بما قد علمتم.

وفى أخبارنا نحن: مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. حتى قيل: من عمل بِعُشر ما يعلم ورّثه الله علم ما يجهل.

وقد روينا عن حذيفة بن اليمان: «إنّكم اليوم فى زمانٍ مَنْ تَرك فيه عُشر ما

يعلم هلك، ويأتى بعدكم زمانٌ من عَمِل منهم بعُشر ما يعلم نجا». هذا لقلة العاملين، وكثرةِ البطَّالين. وفى كتابِنَا المجمل المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨].

واعلم أن مَنْ عَمِل بعِلْمٍ، أو نطَق به، فأصاب الحقيقةَ عند الله تعالى، فله أجران؛ أجرُ التوفيق، وأجرُ العمل، وهذا مقامُ العارفين. ومَنْ نطَق بجهل، أو عمل به وأخطأ الحقيقة، فعليه وِزْرَان، وهذا مقامُ الجهال. ومَنْ قال أو عَمِل بعِلْمه، وأخطأ الحقيقة، فله أجرٌ لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهلٍ، أو عملَ عملاً وأصاب الحقيقة، فعليه وِزْرٌ؛ لتركِه طلبَ العلم، وهذا مقام جهلة العابدين[1].

ومَثَلُ العالم مَثَلُ الحاكمِ، وقد قسم النبى ﷺ الحكامَ ثلاثة أقسام فقال ﷺ: «القضاةُ ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلمُ فذاك فى الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لا يعلم، فهما فى النار».

ومن أحسن ما سمعت فى قوله تعالى [الاعراف:٢٦]: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ﴾ قيل: العلم ﴿وَرِيشًا﴾ قيل: اليقين، ﴿ولِباسُ التَّقْوَى﴾ أى: الحياء.

وروينا عن وهب بن منبِّه اليمانى فى معناه: «الإيمان عريانٌ، ولباسُه التقوى، وزينتُه الحياءُ، وثمرتُه العلم». وقد أسندَه حمزةُ الخراسانى عن الثورى، فرفعه إلى عبد الله عن النبى ﷺ. وقد رويناه أيضًا مسندًا.

وقال مسعر عن سعد بن إبراهيم، وسأله سائل: أى أهل المدينة أفقهُ؟ فقال: أتقاهم لله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء: لو قال لى قائل: أىُّ الناس أعلم؟ لقلتُ: أورعُهم. ولو

(١) هذه الفقرة وبعض الأخبار اختلف موضعها هنا عما عليه فى المخطوط، فتركت المطبوعة على ما هى عليه لاختصار المخطوطة، كما أن النص لا يتأثر بذلك الترتيب على الأغلب.

قال لى قائلٌ: أىُّ أهل هذه المدينة خير؟ لقلت: تعرفون أنصحهم لهم؟ فإذا قالوا: نعم، قلت: هو خيرهم. وقال آخر: لو قيل لى: من أحمق الناس؟ لأخذتُ بيد القاضى فقلتُ: هذا.

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨]، ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فجعل الله تعالى مفتاح القول السديد، والعلم الرشيد، والسمع المكين: التّقوى، وهى وصية الله تعالى مَن قبلنا وإيّانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على قُطبها[١].

وروينا عن عيسى [صلَّى الله على نبينا وعليه وسلم][٢]: كيفَ يكونُ من أهل العلم مَنْ مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكونُ من أهلِ العلم مَنْ يَطلب الكلامَ ليُخْبر به، وهو لا يطلبه ليعمل به؟

وقال الضحاكُ بن مزاحم: أدركتُهم وما يتعلمُ بعضُهم من بعض إلا الورَعَ وهم اليومَ يتعلَّمونَ الكلامَ.

وفى الحديث: «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه إلا أُعْطُوا الجَدَلَ، ثم قَرَأَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]»، وفى بعض الحديث: « ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] الآية: هُمْ أهلُ الجَدَلِ الذينَ عَنَى اللهُ تعالى فَاحْذَرُوهُم».

وعن بعض السَّلَف: يكونُ فى آخرِ الزَّمَانِ علماءُ يُغلَقُ عَنْهُم بَابُ العَمَلِ، ويُفتحُ عليهم بابُ الجَدَلِ. وفى بعضِ الأخبارِ: إنكم فى زمانٍ أُلهِمتُم فيه العلمَ، وسيأتى قومٌ يُلْهَمُونَ الجَدَلَ.

---

(١) فى (ط): «على الخشبان».

(٢) زيادة من (ك).

وعن ابن مسعود: أنتم اليومَ فى زمانٍ خَيْرُكُم فيه المُسَارِعُ، ويأتى بَعْدَكُم زمانٌ خيرُكُمْ فيه المتبيِّن. يعنى: الآنَ لبيانِ الحقِّ واليقينِ فى القرنِ الأول، وبَعْدَ ذلكَ فى زَمَانِنَا هذا لكثرةِ الشبهاتِ والالتباسِ ودخولِ المحدثَاتِ مَدَاخِلَ اللَّيلِ فى السَيْرِ، فأشْكَلَ الأمْرُ إلا على الفَرْدِ الذى يعرفُ طرائقَ السَّلَفِ فيَجتنبُ الحدَثَ كُلَّه.

ورُوينا عَنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ: إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدٍ خيراً فَتَحَ له بابَ العَمَلِ، وأغْلَقَ عَنْهُ بابَ الجَدَلِ، وإذا أراد الله بعبدٍ سوءاً أغلقَ عنه بابَ العَمَلِ، وفَتَحَ عليهِ بابَ الجَدَلِ.

وفى الخبر المشهورِ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ: «أبْغَضُ الخَلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الألَدُّ الخَصِمُ».

وقد روينا فى خبر: «الحياءُ والعِيُّ شُعْبَتَان منَ الإيمان، والبَذَاءُ والبيانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ». وفى بَعْضِهَا مُفَسَّرًا: «والعِيَّ عِيُّ اللِّسَانِ لا عِيَّ القلبِ».

والخبرُ الآخَرُ، ما رَوَى الحكمُ بنُ عُيَيْنَة عَن عَبْدِ الرحمنِ بن أبى لَيْلَى قال: قالَ رسول الله ﷺ: «ما أُوتِىَ قَوْمٌ المنطقَ إلا مُنِعوا العَمَلَ». وفى الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى لَيُبغِضُ البليغَ من الرجالِ الذى يَتخللُ الكلامَ بلسانِه كما تتخللُ الباقرةُ الخلاءَ بلسانِها»، والخلاءُ: هو الحشيشُ الرطبُ.

وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ يقولُ: العلمُ إنَّما هو ما جاءَ مِنْ فَوق. يعنى: إلهامًا مِنْ غيرِ تعليمٍ. وقالَ أيضًا: علماءُ أهلِ الكلامِ زنادِقَةٌ. وقال قبله أبو يوسف: مَنْ طَلَبَ العلمَ بالكلامِ تَزَنْدَقَ.

بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر

مما يَدُلُّكَ على أنَّ العِلْمَ الذى فَضَّلَهُ العلماءُ، وأعْظَمُوا ذِكْرَهُ وَخَطَرَه، ووَصَفُوا به العالِمَ ومدحُوه به، وجاءتْ بِفَضْلِه الآثارُ، ونُدِبَ إليه، وفُضِّلَ فى الأخْبَارِ أهْلُه ـ إنَّما هُوَ العِلْمُ بالله تعالى، الدَّالُّ على الله تعالى، الرَّادُّ إليه، الشَّاهدُ بالتوحيدِ

فى علمِ الإيمانِ واليقينِ وعلمِ المعرفةِ والمعاملةِ دونَ سائرِ علومِ الفُتْيَا والأحكامِ. إنَّهم يقولونَ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِه ويذكرون العَمَلَ بالعلمِ، ويَصفونَ جُملَته بالخشية والخشوع. فهذا إنّما هو علمُ القلوبِ لا علمُ اللسان، الذى يكون به العملُ وتتأتى عنه[1] المعاملات من أعمال الإيمان، مِثْل أعمالِ القلوب التى هى مقامات اليقين، وصفات المتقين، ومثلُ أعمالِ الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الإيمان، والذين أربابُها: أهل الفقر والزهد، وذُو التوكل والخوف، وأصحابُ الشوق والمحبة.

وليس يَعنُون أن يكون الإنسانُ إذا عَلِمَ علمَ الأحكام والقضايا عمل بها، والتزم الدخول فى أحكامها؛ ليعامل منها، مثل: أن يطلبَ القضاءَ، فيقضى بين الناس إذا كان عالمًا به، أو يقتنى المالَ، ويدخل فى البيع والشراء إذا كان عالمًا بالزكوات والبياعات، أو يتزوجَ النساءَ ويُطلّق؛ لأنّه عالم بالنكاح والطلاق؛ ليكونَ بهذه الأشياء عاملاً بعلمه.

هذا ما قاله أحدٌ، بل قد رُوى فى كراهة ذلك وذمِّه ما يكثر ذكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها، ويلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد.

ومثل ذلك أيضًا: تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم: ذرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد، وحديثُ أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «فَضْلُ العَالِم عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أمَّتِى»، والخبر المشهور: «كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ»، وقول ابن عباس وسعد وقد رويناه مسندًا: «عالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»، وكذلك قيل فى موته: «أحب إليه من موت ألف عابد» ـ إنَّما يَعنون بذلك: العلمُ بالله تعالى أفضلُ من العمل؛ لأنّ العلمَ بالله تعالى وصفٌ من الإيمان، ومعنًى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعزّ منه، فهوَ لا يُعادله شىء، ولا يصح عمل ولا يُقبل إلا به، ولأنه معيار الأعمال كلها؛ على وزنه تُتقبل

(١) فى (ط): «الذى يكون به العلم ولا تتأتى عنه» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

الأعمال قبولاً حسنًا بعضه أحسن من بعض، ويثقل فى الميزان ثِقَلاً فوق ثِقَل، ويُرفعُ به العاملونَ فى درجات علِّيين بعضها من بعض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف:٥٢]، ثمَّ قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف:٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف:٨].

فما كان العائد منه إلى الربوبية أقرب كان أفضل. والعملُ وصف العاملِ وحُكم العبودية، لا أنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التى هى أماكن الخلق عائدة عليهم أفضلُ من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكُّل والرضا والمحبة التى هى معاينة اليقين الذى هو مقام المقربين، هذا لا يقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أقربُ الناسِ من درجةِ النبوّةِ أهلُ العلم وأهلُ الجهاد. أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءت به الرسل، وأما أهلُ الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل». ألا تراه كيف جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهاد؟

وكذلك جاء فى الخبر: «أوَّلُ مَنْ يَشْفَعُ الأنبياءُ ثم الشهداءُ». وفى الخبر: «لِلأنْبِيَاءِ عَلَى العُلَمَاءِ فَضْلُ دَرَجَةٍ، وَلِلْعُلَمَاءِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فَضْلُ دَرَجَتَيْنِ».

وقال ابن عباس فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة.١١] قال: للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجةٍ، ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال ابن مسعود: لما ماتَ عمرُ رضى الله عنهما إنى لأحْسِبُ أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. فقيل: تقول هذا وفينا جِلَّةُ الصحابة. فقال: ليس أعنى العلم الذى تريدون، إنّما أعنى العلم بالله تعالى.

فجعل العلمَ بالمعلوماتِ غير حقيقةِ العلم، وفضَّل العلمَ بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثير زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة؛ لأنه صفةُ اللسان؛ ولأنه للعموم من المسلمين.

فأعلى مقاماته الإخلاصُ، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حال العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء، الآكلين بعلومهم الدنيا

قد فَرَّقَتِ العُلَماءُ بَيْنَ العِلْمِ بالله تعالى وبينَ العلمِ بأمْرِ الله تعالى، وفرَّقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. فقال سُفْيانُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ بالله وبأمر الله فذاكَ العالمُ الكاملُ، وعالمٌ بالله تعالى فذاكَ التَّقِيُّ الخَائفُ، وعالمٌ بأمْرِ الله تعالى غيرُ عالم بالله تعالى فذاك العالمُ الفاجرُ.

وقيل أيضًا: عَالِمٌ لله تعالى وهو العَامِلُ بِعِلْمِه، وعالمٌ بأيامِ الله تعالى وهو الخائفُ الرَّاجِي.

وسُئِلَ سفيانُ عنِ العلمِ مَا هو؟ فقال: هو الوَرَعُ. قيل: وأى شَيءٍ هو الوَرَعُ؟ فقال: طلبُ العلم الذى يُعرَفُ به الورع. وهو عِنْدَ قومٍ طولُ الصمتِ وقِلَّةُ الكلامِ، وما هو كذلك إنما هو المتكلِّمُ العالِمُ عندنا أفضلُ من الصامتِ.

وروينا عن لقمان فى وصيته: للعلم ثلاثُ علاماتٍ: العلم بالله، وبما يحبهُ اللهُ تعالى، وبما يكْرَهُ. فَجَعَلَ حقيقةَ العِلْم ودليلَ وجودِه هذه الثلاث.

ومما يدلُّكَ على الفرقِ بين علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ أنَّ كلَّ عالمٍ بعلمٍ إذا رآهُ مَنْ لا يَعْرِفُه لم يتبينْ عليه أثرَ علْمِه ولا عرفَ أنه عَالِمٌ، إلا العلماء بالله عزّ وجلّ فإنما يُعْرَفُونَ بسيماهُم للخشوعِ والسَّكِينَةِ والتواضعِ والذِّلَّة، فهذه صِبغَةُ الله تعالى لأوليائه ولِبْسَتُهُ للعلماءِ به، وَمَنْ أحْسَنُ منَ الله صبغةً، فَمَثَلُهُم فى ذلكَ كَمَثَلِ الصَّبَّاغِ، إذْ كلُّ صانعٍ لو ظَهر لمن لا يَعرفهُ لم يَعرفْ صَنْعَتَهُ دون سائر الصَّنَائعِ، ولم يُفرِّقْ بينه وبينَ الصَّبَّاغِ إلا الصَّبَّاغُ، فإنه يُعْرَفُ بِصَنْعَتِه؛ لأنَّهَا ظاهرةٌ عليه، إذ صارتْ له لبسةً وصِفَةً لالتباسِهَا بمُعَامَلَتِه، فكانت سِيماهُ. كما قيل: ما ألْبَسَ اللهُ

تعالى عبدًا لِبْسَةً أحسنَ مِنْ خُشُوعٍ في سكينة، هي لبسةُ الأنبياء، وسيمَا الصِّدِّيقينَ والعلماء. فأعلمُ الناس بلطفِ ما يحبُّ اللهُ تعالى وخَفَيِّ ما يكره أهلُ القلوبِ الفاقِهَةِ عن الله تعالى وهم العارفونَ به.

وقد كان سهلٌ رحِمَهُ الله يقولُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ باللهِ تعالى، وعالمٌ للهِ تعالى، وعَالِمٌ بحكمِ الله تعالى.

يعنى: العالمُ بالله تعالى العارف الموقن، والعالمُ لله عزّ وجلّ هو العالمُ بعلمِ الإخلاصِ والأحوالِ والمعاملاتِ، والعالمُ بحكمِ اللهِ تعالى هو العالمُ بتفصيلِ الحلالِ والحرامِ. فسَّرنا ذلك على معانى قوله، ومعرفة مذهبه.

وقد قال مرّة فى كلام أبسطَ من هذا: عالمٌ بالله لا بأمر اللهِ ولا بأيامِ اللهِ، وهم المؤمنون. وعالمٌ بأمر الله لا بأيام الله وهم المفتونَ فى الحلالِ والحرامِ. وعالمٌ بالله تعالى عالمٌ بأيام الله وهم الصِّدِّيقُون.

يعنى قوله «بأيام الله» أى: بنعمته الباطنة، وبعقوباته الغامضة.

ثم قال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياءٌ شهداءُ وهم المؤثرُونَ لله تعالى على كل حال. وقد كانَ يقولُ: طلابُ العلمِ ثلاثةٌ: واحدٌ يطلبُه للعمل به. وآخرُ يطلبه ليعرفَ الاختلاف، فيتورَّع ويأخذ بالاحتياط. وآخرُ يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام فيجعله حلالاً، فهذا يكون هلاكُ الحقِّ على يديه.

وقد حُدِّثتُ عن أبى يوسف أنه كان إذا صار رأسُ الحول وهَب مالَه لامرأتِه، واستوهَبَها مالها، فتسقط عنهما الزكاة، فذُكرَ ذلكَ لأبى حنيفةَ فقال: ذلك من فقهه[1].

فإنّما يُطلَب العلمُ لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلم النافع. فإذا طُلب لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهل خيرًا منه، وصار هذا العلمُ هو الضارَّ

(١) مثل هذه الحكايات لا تصحّ عن قومٍ مشهودٍ لهم بالورع والفقه والاتباع. فإن مثل هذا لا يستحله الجاهل البخيل، فكيف بفقيهٍ ورع؟!

الذى استعاذ الرسول ﷺ منه.

وروينا عن عمرَ وغيرِه: كم من عالم فاجرٍ وعابدٍ جاهل، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين. وعن عمرَ أيضًا، وقد رويناه مسندًا: اتّقوا كلَّ منافق عليمَ اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. وروينا عنه أيضًا: تعلَّموا العلم وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلّمون، وليتواضع لكم من يتعلَّم منكم، ولا تكونوا جبلبرةَ العلماءِ فلا يقوم علمُكم بجَهْلكم.

وروينا عن على وابن عباس رضى الله عنهما وعن كعب الأحبار: يكون فى آخر الزمانِ علماءُ يُزَهِّدون الناس فى الدنيا ولا يَزْهَدُونَ، ويخوّفون ولا يخافُونَ، وينهون عن غشيانِ الولاةِ ولا ينتهون، ويُؤْثِرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلاً، يُقَرِّبونَ الأغنياء ويباعدون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدُهم على جليسه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم. وفى حديث على رضى الله عنه: علماؤهم شرُّ الخليقة، منهم بدت الفتنةُ، وفيهم تعود. وفى حديث ابن عباس: أولئك الجبَّارونَ أعداءُ الرحمن.

وروينا عن على عليه السلام: ما قطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان: عالمٌ فاجرٌ، ومبتدعٌ ناسكٌ. فالعالم الفاجر يَزْهَدُ الناسُ فى علمه لما يَرَوْنَ من فجورِه، والمبتدعُ الناسكُ يَرْغبُ الناسُ فى بدعته لما يَرَوْنَ من نُسكه.

وقال صالحُ بنُ حَسَّان البصرى: أدركتُ المشيخةَ وهم يتعوَّذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنَّة.

وقال الفضيل بن عياض: إنّما هما عالمان؛ عالمُ دنيا، وعالم آخرة. فعالم الدنيا علمُه منشورٌ، وعالم الآخرة علمُهُ مستور. فاطلب عالمَ الآخرةِ واحذَر عالمَ الدُّنيا لا يصدَّنك بشكره. ثم قرأ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤]. قال: فالأحبارُ العلماءُ، والرهبان الزهّادُ.

وقال سهلُ بن عبد الله: طلاب العلم ثلاثة؛ فواحدٌ: يطلب علمَ الورع مخافة

دخول الشبهة عليه، فيدع الحلالَ خوف الحرام، فهذا زاهدٌ تقى. وآخرُ: يطلبُ علمَ الاختلافِ والأقاويل، فيدع ما عَلَيْهِ ويدخلُ فيمَا أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ بالرخصة. وآخرُ: يسأل عن شيء فيقال: هذا لا يجوز، فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لى؟ فيسأل العلماء، فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكونُ هلاكُ الخلق على يديه، وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء.

واعلم أن كلَّ محبٍّ للدنيا ناطق بعلم فإنه آكلٌ للمال بالباطل، وكلٌّ من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصدُّ عن سبيل الله لا محالةَ، وإن لم يظهر ذلك فى مقاله، ولكنك تعرفه فى لحن معناه بدقائق الصدّ عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة؛ لأنّ حبَّ الدنيا وغلبةَ الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء: إن الله عزّ وجلّ يحبُّ العالمَ المتواضعَ، ويبغضُ الجبَّارَ من العلماء، ومن تواضع لله تعالى ورَّثه اللهُ تعالى الحكمةَ.

وفى الخبر عن ابن مسعود : «إنَّ الله تَعَالى ليَمْقُتُ الحَبْرَ السَّمِينَ» . وقال رسول الله ﷺ لمالك بن الصيف؛ حبر من أحبار اليهود: «نشدتُك اللهَ تعالى، ألم تجد فيما أُنزل على موسى عليه السلام أن الله يبغضُ الحبرَ السّمين؟»[1]. وكان ابن الصيف سمينًا، فغضب عندها فقال: مَا أنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ. ففيه نزلت هذه الآية تعريفًا لبُهته: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ [الأنعام:٩١]. فقال له أصحابه: ويحكَ ماذا قُلتَ؟ جحدتَ كتابَ موسى! فقال: إنّه مَحكَنِى[2] فقلتُ ذلك.

ويقال: ما آتى الله تعالى عبدًا علمًا إلا آتاه معه حِلمًا وتواضعًا وحُسْنَ خلق ورفقًا، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه فى الأثر: «مَنْ آتاه الله عزّ وجلّ زهدًا وتواضعًا وحُسْنَ خُلُق فهو إمام المتقين». وكان الحسنُ يقول: الحلُم

(١) هذا الحديث مرسل، انظر: أسباب نزول القرآن، للواحدى، ص ٢٢٣، والدر المنثور ٣/ ٢٩.
(٢) محكنى: جادلنى.

وزيرُ العلمِ، والرفقُ أبوه، والتواضعُ سربالُه.

وفى أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، لا تسألنَّ عنى عالمًا قد أسكرته الدنيا فيصدَّك عن طريق محبتى، أولئك قطّاع طريق عبادى المريدين. يا داودُ، إن أدنَى ما أصنعُ بالعالم إذا آثرَ شهوتَه على محبَّتى أنْ أحرمَه لذيذَ مُنَاجَاتى. يا داودُ، إذَا رأيتَ لى طالبًا فكُنْ لَهُ خَادمًا. يا داودُ، مَنْ ردَّ إلىَّ هاربًا كَتَبْتُهُ عندى جَهْبَذًا، ومَنْ كَتَبْتُهُ جَهْبَذًا لم أُعَذِّبْهُ أبدًا.

وروينا عَنْ عيسَى عليه السلام: مَثَلُ عُلَمَاءِ السُّوءِ مَثَلُ صَخْرَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَمِ النَّهْرِ لا هى تَشْرَبُ الماءَ ولا تَتْرُكُ الماءَ يَخْلُصُ إلى الزَّرعِ، وكذلك عُلَمَاءُ الدُّنْيا قَعَدُوا على طريقِ الآخرةِ فلا هُم نَفَذُوا ولا تَرَكُوا العِبَادَ يَسْلُكُون إلى الله عزّ وجلّ. قال: ومَثَلُ عُلَمَاءِ السُّوءِ كَمَثَلِ قَنَاةِ الحَشّ ظَاهِرُها حَسَنٌ وبَاطِنُهَا نَتِنٌ، وَمَثَلُ القُبُورِ المشَيَّدَةِ ظَاهِرُهَا عَامِرٌ وبَاطِنُهَا عِظَامُ الموتَى.

وقال بِشْرُ بن الحارث: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ مِنَ العُلَمَاءِ فتقرَّبَ إلى الله تعالى بِبُغْضِه فإنه مَقِيتُ الله فى السماءِ والأرضِ.

وكان الأوزاعىُّ يَرْوِى عَنْ بِلالَ بنِ سعد أنه كان يقولُ: يَنْظرُ أحدُكُم إلى الشُّرطىِّ والعَوْنِ[1] فيستعيذُ بالله تعالى من حالِه ويَمقُتُه، وينظرُ إلى عالِم الدنيا قد تَصَنَّعَ للخلقِ وتَشَوَّفَ للطَّمَعِ والرِّيَاسَةِ فلا يَمْقُتُهُ. هذا العالمُ أحَقُّ بالمقتِ من ذلك الشُّرطىِّ.

وقد كان أبو محمد يقولُ: لا تقطعُوا أمرًا من الدِّين والدنيا إلا بِمَشُورَةِ العُلَمَاءِ تُحْمَدُوا العَاقِبَةَ عِنْدَ الله. قيل: يا أبا مُحَمَّد، مَنِ العُلَمَاءُ؟ قال: الذينَ يُؤثِرُونَ الآخرةَ على الدنيا ويؤثرونَ اللهَ تعالى على نُفُوسِهِم.

وقد قال عُمَرُ رضى الله عنه فى وَصِيَّتِه: وشاور فى أمورك الذين يَخْشَوْنَ اللهَ تعالى.

وروينا فى الإسرائيليات: أنَّ حكيمًا مِنَ الحُكَمَاءِ صَنَّفَ ثلاثمائةً وستينَ مُصْحَفًا

(١) العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء.

فى الحكمة، حتى وُصِفَ بالحُكْمِ[1]. فأوحى اللهُ تعالى إلى نَبِيِّهم: قل لِفُلانٍ: قد ملأتَ الأرضَ نِفَاقًا ولم تُرِدْنى بشىءٍ من ذلكَ، وإنى لا أقبلُ شيئًا من نِفَاقِكَ. قال: فأُسْقِطَ فى يديه، وحزنَ وتَرَكَ ذلك وخالطَ العامَّةَ ومشى فى الأسواقِ، وواكلَ بنى إسرائيلَ، وتَوَاضَعَ فى نَفْسِهِ. فأَوْحَى اللهُ تعالى إلى النبى عليه السلام: قُلْ له الآن: وافقتَ رضاى.

وقال بعضُ العلماءِ: كان أهلُ العِلمِ على ضَرْبينِ؛ عالمُ عامَّةٍ، وعالمُ خاصَّةٍ. فأمَّا عالمُ العامةِ: فهو المُفْتِى فى الحَلالِ والحرَامِ، وهؤلاءِ أصحابُ الأساطينِ. وأما عالمُ الخاصةِ: فهو العالمُ بعلمِ التوحيدِ والمعرفةِ، وهؤلاءِ أهلُ الزوايا، وهم المنفردُون. وقد كانوا يقولون: مَثَلُ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ رضى الله عنه مَثَلُ دِجْلَةَ كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُها، ومَثَلُ بِشْرِ بن الحارث مَثَلُ بِئْرٍ عَذْبَةٍ مُغَطَّاةٍ لا يَقْصِدُها إلا وَاحِدٌ بعدَ واحدٍ.

وقال حمادُ بن زيدٍ: قيل لأيوبَ: العلمُ اليومَ أكثرُ أو فيما مضى؟ فقال: العلم فيما مضى كان أكثرَ، والكلامُ اليوم أكثر. ففرَّق بينَ العِلمِ والكلام.

وقد كانوا يقولونَ: فلانٌ عالم، وفلانٌ متكلمٌ، وفلانٌ أكثرُ كَلامًا، وفلانٌ أكثرُ عِلْمًا. وكان أبو سُلَيْمَانَ يَقولُ: المعرفةُ إلى السكوت أقربُ منها إلى الكلام. وقال بعضُ العارفين: هذا العلمُ على قسمين: نصفُه صمتٌ، ونصفه تَدرى أين تضعه. وزاد آخر: نصفُه وَجْدٌ، ونصفُه نَظَرٌ. يعنى تفكُّرًا واعتبارًا.

وسُئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال: مَن يضعُ العلْمَ فى مواضعه، ويؤتى كلَّ شىء حقَّه. وقال بعض الحكماء: إذا كَثُرَ العلمُ قلَّ الكلام. وقد كان إبراهيم الخواصُّ رحمه الله يقول: الصوفىُّ كلّما ازدادَ علمًا نقصت طينتُه. وقال بعض شيوخنا: قلتُ للجنيد: يا أبا القاسم، يكون لسانٌ بلا قلب؟. قال: كثير. قلت: فيكون قلبٌ بلا لسان؟ فقال: نعم قد يكون؛ ولكن لسانٌ بلا قلب بلاء، وقلب بلا لسان نعمة. قلت: فإذا كان لسان وقلب. قال: فذاك الزُّبد بالنِّرْسِيان[2].

---

(١) الحكم: العلم والفقه.

(٢) النرسيان: من أجود التمر. وليس فى (ك) قوله: «يعنى العمل».

يعنى: العسل.

وقد روينا حديثًا مقطوعًا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: «قيل: يا رسول الله، أىُّ العمل أفضلُ؟ قال: اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رطبًا من ذكر الله تعالى. قيل: يا رسول الله، فأىُّ الأصحاب خير؟ قال: صاحبٌ إن ذكرتَ أعانَك، وإن نسيتَ ذكَّرك. قيل: فأىُّ الأصحاب شرٌّ؟ قال: صاحبٌ إن سكتَّ لم يذكِّرك، وإن ذَكَرت لم يُعِنْك. قيل: فأىُّ الناس أعلمُ؟ قال: أشدُّهم لله تعالى خشيةً. قيل: فأخبرْنا بخيارنا نُجالسُهم، قال: الذين إذا رُءوا ذُكِرَ اللهُ تعالى. قالوا: فأى الناسِ شرٌّ يا رسول الله؟ قال: اللّهم غَفْرًا. قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: العلماءُ إذا فَسَدُوا».

وقد وصف علىٌّ عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصفٍ غريب، رويناه عن خالد بن طليق عن أبيه عن جده، وجدُّه عمرانُ بن حصين قال[1]: خطبنا على بن أبى طالب عليه السلام ورضىَ عنه، فقال: ذمّتى [بما أقول][2] رَهينة، وأنا به زعيم، لا يهيج على التقوى زَرْعُ قومٍ، ولا يَظْمأ على الهُدى شحُّ أصلٍ[3]. وإنَّ أجهلَ الناس مَنْ لا يَعْرِف قَدْرَه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وإنَّ أبغضَ الخلقِ إلى الله تعالى رجلٌ قَمَشَ علْمًا[4]، أغار فى أغباش الفتنة، عَمٍ عمّا فى غيب الهدنة، سمّاه أشباهُ الناس وأراذلهم عالمًا، ولم يَغْنَ فى العلم يومًا سالمًا. بكَّر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيرٌ مما كَثُر. حتى إذا

(١) هذا الكلام الذى يورده عن الإمام على ليس من خطبة واحدة فقد ورد فى نهج البلاغة فى مواضع متعددة، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٧، ونهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ١/ ٤٦ ـ ٥٠ وما بعدها. وكان النص مضطربًا فقومته من المخطوط، ومن «نهج البلاغة» المنشور فى المعجم المفهرس، ولم ألتزم الإشارة فى كل مرة.

(٢) زيادة من نهج البلاغة للبيان.

(٣) عبارة نهج البلاغة: «لا يهلك على التقوى سَنْخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرعُ قومٍ». نهج البلاغة، محمد عبده ١/ ٥٠.

(٤) فى النهج ١/ ٥١: «قمش جهلاً» وقمش: جمع. ولفظ النهج بعده: «غادٍ فى أغباش الفتنة، عمٍ بما فى عقد الهدنة»

ارْتَوى من آجنٍ، وأكثرَ من غير طائل، جلس للنّاس مفتيًا؛ لتخليصِ ما التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات هيَّأ لها حَشْوَ الرأى من رأيه[١]، [ثم قطع به]، فهو من قَطْعِ الشّبهاتِ فى مثل غزل العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب. ركّابُ جَهَالاتٍ خبّاطُ عَشَواتٍ[٢]. لا يعتذر مما لا يعلم فيَسْلَم، ولا يَعَضُّ على العلم بِضِرْسٍ قاطعٍ فيَغْنَم، تبكى منه الدّماءُ، وتصرخُ منه المواريثُ[٣]، وتُسْتَحل بقضائه الفروجُ الحرام. لا مَلِيٌّ[٤] واللهِ بإصدارِ ما وَرَدَ عليه، ولا هو أهلٌ لما قُرِّظ به. أولئك الذين حلَّت عليهم النياحةُ والبُكَاءُ أيامَ حياةِ الدنيا[٥].

ووصَفَ عليٌّ عليه السلام علماءَ الآخرةِ فى حديثِ كُمَيل[٦] بن زياد الذى يقول فيه: الناس ثلاثة؛ عالم ربانى. يعنى: عالمًا بالربوبية، فينسبه إلى ربّ، كما سماهم الله فى قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ﴾ الآية [آل عمران: ٧٩]. فسمّى العالمَ بكتابه ربانيًا، والدارسَ له ربَّانِيًا، فهذا قد جمع العلم والعمل.

وكذلك يقال: العالم الربانى هو الذى يَعْلم، ويَعْمل، ويُعَلِّم الناسَ الخير. قال: فذاك الذى يُدعى عظيمًا فى ملكوت السماء. وقال تعالى فى تقدمتهم: ﴿لَوْلاَ يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] فقدم الربانيين على الأحبار، وهم علماء الكتب. وكذلك رويناه عن مجاهد قال: الربانيون فوق الأحبار درجةً. وقال غيره: والأحبارُ فوقَ الرهبانِ. يعنى: علماء القلوب أرفعُ من علماء الألسنة. والعلماءُ بالكتب أفضلُ من العبّادِ بدرجة. وقد ضمَّهم الله تَعالَى إلى أنبيائه فى

---

(١) فى نهج البلاغة: «حشوًا رثًا من رأيه» وهو أدق.

(٢) فى النهج: «جاهل، خبّاط جهالات، ركّاب عشوات».

(٣) فى النهج: «تصرخ من جور قضائه الدِّماء، وتَعُجُّ منه المواريث».

(٤) المَلِيُّ بالشى: القيّم به الذى يجيد القيام عليه.

(٥) انتهى ما نقله هنا من كلام الإمام على، مع تقديم وتأخير فى الجمل والعبارات والألفاظ، وبقى بقية من خطبته تلك، انظر: المعجم المفهرس، ص١٩ خطبة: ١٧.

(٦) فى (ط): «كهيل» وهو خطأ، وكذا وردت فى موضع تالٍ. وقد مضى كلام الإمام على كاملاً.

النصرة له والصبر معه فى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦]. ثم وصفَهم بالثبات لأمره، والقوة فى دينه، والصبرِ لحكمه فى تمام الآية. ورِبِّيُّون: جمع رِبِّى، يقال: رِبِّى، ورَبَّانِى. فجمعُ ربّى: ربِّيُّون، وجمع ربّانى: ربّانيون.

وكذلك جاء عن رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ القيامةِ الأنبياءُ، ثُمَّ العُلَماءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» فقدّم العلماء على الشهداء؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجور أمته، والشهيدُ عمله لنفسه. وفى خبر آخر: «حِبْرُ العُلماء يُوزن بدمِ الشهداء». فأعلى حالِ الشهيد دمُه، وأدْنَى وصف العالم حبره، فسوَّى بينهما، وزادَ العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان على عليه السلام يقول: العالمُ أفضلُ من الصائمِ القائمِ والمجاهد فى سبيل الله، وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلمة لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منه. وقد روينا معناه مسنداً: إذا مات العالمُ ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها شىء ما طردَ الليلُ النهارَ، إلا موتُ العالِم بحم طَمْس[1]، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت عالم.

ثم قال على عليه السلام فى حديث كُمَيل: «ومتعلم على سبيل النجاة» يعنى: مريداً طالبًا للعلم، متعلمًا من العلماء بالله تعالى على طريق معاملةٍ وإخلاصٍ لطلب السّلامة، وأن ينجو من الجهل فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة. ثم قال: «وهَمَجٌ رِعاع»، الهَمَج: الفراش الذى يتهافتُ فى النار لجهله، واحدته: هَمَجَة، رِعاع: خفيف طيَّاش لا عقل له، يستفزُّه الطمع، ويستخفُّه الغضب، ويزدهيه العُجْب، ويستطيله الكِبْرُ. ثم بكى علىٌّ عليه السلام وقال: «هكذا يموت العلم بموت حامليه». ثم تنفَّس عند وصف الرَّبانيين فقال: «واشوقاهُ إلى رؤيتهم» يعنى الربانيين من العلماء. وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله فى الباب الذى قبل هذا.

---

(١) حم: أى السورة التى تبدأ بحم، أى طمس لمعالم الإسلام.

فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقًا هم الذين اشتاق رسولُ الله ﷺ إليهم قبله، فقال: «وا شوقاه إلى لقاء إخوانى، وددتُ أنى قد رأيت إخوانى». ثم قال: «هم قومٌ يجيئون بعدكم»، ثم وَصفَهم. فإنّما كانوا إخوانَه لأنّ قلوبَهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقَهم بمعانى صفات الإيمان. وهم أبدالُ هذه الأمة، جاء فى وصفهم ما يَجِلُّ عن الوصف، هم على ثلاث طبقات: صدِّيقون، وشهداء، وصالحون. وإنَّ منهم: مَنْ قلبُه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم: مَن قلبه على قَلْب موسى الكليم، وعيسى الروح، ومحمد الحبيب، صلوات الله عليهم وسلم أجمعين. ومنهم: على قلْب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

والأخوّةُ تقع بين الاثنين فى المجالسة، وقُرب الشّبه فى الأفعال والأخلاق، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحشر:١١] لما كانوا على أوصافهم فى القلوب من إسرار الكفر واعتقاد الشَّكِّ جعلهم إخوانًا. وكذلك قال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]، وهؤلاء ليسوا أمثالهم فى الخلقة، ولا بينهم أبوَّة ولا أمومة، لأن الشياطينَ من ولد إبليس والمبذِّرين أولادُ آدمَ عليه السلام، ولكن تشابَهَتْ قلوبُهُم فى المواجيد والأخلاقِ والأفعال، فآخى بينهم للتشابه.

فمَن كان مِن علماء الآخرة فعقلُه يستضيءُ من أنوار قلبه، وفهمُه ينبئ عن استنباط علمِه، ومشاهدتُه وأخلاقُه على معانى يقينه، وقوته، وطريقه، وسلوكه فى منهاج سنته، وسبيله؛ فهو من إخوانه؛ وإخوان النبيين الذين اشتاق إلى رؤيتهم رسولُ الله ﷺ، وهم الغرباءُ بين الملأ الذين قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يُصلحونَ إذا فسد الناس». وفى لفظ آخر: «الذين يُصلحون ما أفسَدَه الناسُ من سنتى، والذين يُحيُون ما أمات الناس من سنتى»، يعنى أنّهم يظهرون طريقته التى تركها النَّاسُ وجهلوها.

وفى خبر آخر: «هم المتمسكون بسنتى وما أنتم عليه اليوم».

وفى حديث آخر: «الغرباء ناسٌ قليلونَ صالحونَ بين ناس سوءٍ كَثيرين، مَن

يُبْغِضُهُمْ أكثرُ ممَّن يحبهم».

فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين فى أعلى عليين، فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

وقد كان الثورى يقول: إذا رأيتَ العالمَ كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلِّط. وقال أيضًا: إذا رأيتَ الرجلَ محبَّبًا إلى إخوانه، محمودًا فى جيرانه، فاعلم أنه مُراءٍ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى علماءَ السّوء بأكل الدُّنيا بالعلم، ووصفَ علماءَ الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى فى علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [آل عمران:١٨٧]. وقال فى نعت علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٩].

وقد روينا عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «عُلَمَاءُ هذه الأمَّة رَجُلان؛ فَرَجُلٌ آتاه الله علمًا، فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ، ولم يأخذْ عليه طمعًا، ولم يشترِ به ثمنًا، فذاك يُصَلّى عليه طيرُ السماء وحيتانُ الماء وداوبُ الأرض والكرامُ الكاتبُون، يَقْدُمُ على الله تعالى يوم القيامة سيّدًا شريفًا حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله تعالى علمًا فى الدنيا، فضنَّ به على عباد الله عزّ وجلّ، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يأتى يوم القيامة مُلْجَمًا بلجام من نار، ينادى منادٍ على رؤوس الخلائق: هذا فلانُ ابنُ فلان، آتاه الله تعالى علمًا فى الدنيا فضنّ به على عباد الله تعالى، وأخذ عليه طمعًا، واشترى به ثمنًا، يُعذَّبَ حتى يُفْرَغَ من حساب الناس».

ومن أغلظِ ما سمعتُ فيمن أكلَ الدنيا بالعلم: ما حدثونا عن عتبة[1] بن واقد، عن عثمان بن أبى سليمان قال: كان رجلٌ يخدم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم فجعل يقول: حدَّثنى موسى نبى الله، حدثنى موسى نجىُّ الله، حدثنى موسى كليمُ الله، حتى أُثْرِىَ وكَثُر مالُه، ففقدَه موسى صفىُّ الله دهرًا، فجعل

(١) فى (ك): «عبيد».

يسأل عنه فلا يحس له أثرًا، حتى جاءه رجلٌ ذات يوم، وفى يده خنزيرٌ فى عنقه حبْل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلانًا؟ قال الرجل: نعم، هو ذا الخنزير. فقال موسى: يا ربِّ أسألك أن تردَّه إلى حاله حتى أسألَه فيما أصابه هذا. فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو دعوتَنى بما دَعانى به آدمُ فمَن دُونه ما أجبتُك فيه، ولكنِّى أخبرُك لِمَ صنعتُ به هذا؛ لأنه كان يطلبُ الدُّنْيا بالدين.

وروينا عن الحسن: أنه انصرف يومًا من مجلسه، فاستأذَن عليه رجلٌ من أهل خراسان فوضع بين يديه كيسًا فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيبته[1] رزمة فيها عشرة أثواب من رَقيق بَزّ[2] خراسان. فقال الحسن: ما هذا؟ فقال: يا أبا سعيد، هذه نفقة، وهذه كسوة. فقال له: عافاكَ الله، ضُمَّ إليك نفقتَكَ وكسوتكَ، فلا حاجةَ لنا بذلك. إنّه من جلسَ مثل مجلسى هذا وَقبِلَ من الناسِ مثلَ هَذا لَقِىَ الله تعالى يوم القيامة لا خَلاقَ له.

وفى خبر: «إن العبد لَيُنشَرُ له من الثّناء ما بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وما يزن عندَ الله جناح بَعوضة».

وعلماءُ الدنيا الطالبونَ لها بالعلم، الآكلون لها بالدين، المتخذونَ الأصدقاء[3] والأخلاَّء من أبنائها، المكرِمُونَ المحبون لهم، المقبلون بالبِشْر والبشاشة عليهم ـ هم معرفون فى كل زمان بأوصافهم، ولحن قولهم وسيماهم.

وقد روينا فى مقاماتِ علماءِ السوءِ حَدِيثًا شديدًا، نعوذ بالله من أهله، ونسأله أن لا يبلونا بمقام منه، فروِيناه مرةً مسندًا من طريق، وروِيناه موقوفًا على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أذكره موقوفًا أحبّ إلىّ. حدثونا عن منذر بن على، عن أبى نعيم الشامى، عن محمَّد بن زياد، عن معاذ بن جبل، يقول فيه: قال رسول الله ﷺ، ووقَفْتُه أنا على معاذ، قال: من فتنة العالم أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، وفى الكلام تنميق وزيادة، ولا يُؤمَن على صاحبه الخطأ، وفى

(١) لا تقرأ فى المخطوط «حقيبته» وهى أقرب إلى «حضْنه».

(٢) فى (ط): «دقيق بر» وهو خطأ، والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) فى (ك): «المتخذوا الأصدقاء».

الصمت سلامةٌ وعلم. ومن العلماء مَنْ يَخْزِنُ علمَه فلا يحبُّ أن يوجد عند غيره، فذلك فى الدرك الأوَّل من النار، ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدّ عليه شيء من علمه أو تُهاون بشيء من حقه غضب، فذلك فى الدرك الثانى من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشّرف واليسار، ولا يرى أهلَ الحاجة له أهلاً، فذلك فى الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يَنْصِبُ نفسه للفتيا، فيفتى بالخَطأ، والله عزّ وجلّ يَبْغَضُ المتكلِّفين، فذلك فى الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهودِ والنصارَى؛ لِيَغْزُرَ به علمُه، فذلك فى الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذُ علمَه مروءَة ونبلاً وذكراً فى الناس، فذلك فى الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزُّه الزَّهْوُ والعُجْبُ، فإن وُعِظَ عَنَّفَ، وإن وُعِظَ أَنِفَ، فذلك فى الدرك السابع من النار. عليك بالصمت، فبه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عَجَب، أو تَمْشى فى غير أَرَبٍ.

وقد روينا حديثًا يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول ما يدعون الخلق إليه من مقامات الإيمان، وأسباب الدين والإيقان. رويناه عن شقيق بن إبراهيم البلخى عن عبَّاد بن كثير عن أبى الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله ﷺ ووقَفْتُه أنا على جابر بن عبد الله قال: لا تجلسوا عند كلّ عالم، إلا عالمٌ يدعوكم من خمس إلى خمسٍ: من الشّك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

ومما يدلك أن علمَ اليقين والتقوى، وعلمَ المعرفة والهدى، هو العلمُ المذكور المقصود عند السلف: أنّ الصحابةَ والتابعين كانوا يشفقون من فَقْدِ ذلك، ويخافون عدمه، ويخبرون عن رَفْعِه وقلّته فى آخر الزمان، وإنما يَعنون بذلك علم القلوب والمشاهدات الذى هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة واليقين الذى هو من مزيد الإيمان وثمرة الهدى. فإذا فُقِد المتقون، وقلّ الخائفون، وعُدِمَ الزاهدون، ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابُها والناطقُون بها، وهى أحوالُهم وطرائقهم، وهم السالكون لها والقائمون بها. فلأجلِ معرفةِ الصحابةِ

والتابعين عِزَّةَ ذلك كانوا يبكون على فقده.

وقد وصف اللهُ العلماءَ بالزهدِ فى الدنيا، والاستصغار لها، وبعمل الصالحات، والإيمان بها، كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها، والاستعظام لها، قال تعالى فى معنى ذلك: ﴿فَخَرَجَ على قَوْمِه فى زِينَتِه قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ثم قال عز وجلّ: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠]. أى لا يُلَقَّى هذه الحكمة إلا الصَّابرون عن زينة الدُّنيا التى خرج فيها قارون.

وروينا عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِىِّ قال: كنا عند رسول الله ﷺ غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً، فيعلِّمنا الإيمانَ قبل القرآن، ثم تعلَّمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا.

وعن ابن مسعود قال: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتى قومٌ يَثْقُفُونَه(١) تثقيفَ الغناء، ليسوا بخياركم. وفى لفظٍ آخرَ: يقيمونه إقامةَ القَدْحِ(٢)، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه.

وروينا عن ابن عمر وغيره: لقد عِشْنا برهةً من دهرنا وإن أحَدَنا يُؤْتَى الإيمانَ قبل القرآن، وتنزل السورةُ فيتعلم حلالَها وحرامَها، وآمرَها وزاجرَها، وما ينبغى أن يتوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. ولقد رأيتُ رجالاً يُؤْتَى أحدُهُم القرآنَ قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما آمِرُه ولا زاجره، وما ينبغى أن يقفَ عنده، وينثرُه نَثْرَ الدَّقَل(٣).

وفى الخبر الآخر بمعناه: كنّا أصحابَ رسول الله ﷺ أُوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قومٌ يُؤْتَوْنَ القرآنَ قبل الإيمان، يقيمون حروفه، ويضيّعون حدوده، ويقولون قرأنا فمَنْ أقرأُ منَّا، وعَلِمْنا فمَنْ أعلمُ منّا، فذلك حظُّهم منه. وفى لفظ

---

(١) يقال: ثَقِفَ الشىءَ ثقفًا: حَذَقَه.

(٢) القدْح: خشبة السَّهم قبل أن تُراش، أى يركب لها الريش.

(٣) الدّقل: أردأ التمر.

آخر: أولئك شِرارُ هذه الأمة.

فأما العلمُ المأثورُ الذى نقَله خلفٌ عن سلف، والخبرُ المرسومُ فى الكتب المستودَع فى الصحف الذى يَسْمَعه مَنْ غَبَرَ عَمَّنْ قَدِمَ، فهذا. وعلمُ الأحكامِ والفتيا[1]، وعلمُ الإسلام والقضايا، طريقُهُ السمعُ، ومفتاحُه الاستدلالُ، وخزانتُه العقلُ، وهو مدوَّن فى الكتب، ومحبَّر فى الورق، يتلقَّاه الصغيرُ عن الكبير بالألسنة، وهو باقٍ ببقاء الإسلام، وموجودٌ بوجود المسلمين؛ لأنّه حجة الله تعالى على عباده، ومحجّة العموم من خلقه، فضمن إظهاره، فلم يكن ليظهر إلا بحَمَلة تُظهره، ونَقَلة تحمله، فقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]. وكما قال الرسول ﷺ بمعناه: «وعلمٌ ظاهر على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه». وقال ﷺ لأصحابه: «تسمعون ويُسمَع منكم، ويُسمَع ممَّن سمع منكم». فأخبر ﷺ بالعلم العتيد المستودع ظهور الكتب الذى هو ظاهر الدين، وفى جهله وعدمه وجودُ الشِّرك. كما ضمن الله تعالى تبقية الإسلام على كره المشركين. وقال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ سمع منا حديثًا فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيه، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه». وقد أخبر أن حاملَ الفقه قد يكون غيرَ فقيهِ القلب إذا لم يعملْ بعلمه، وأنه قد يحملهُ إلى مَنْ هو أفقه منه إذا عَمِل به إذا وعاه. كما قال فى الخبر الآخر: «رُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، فمدحه بالعمل به إذا وعاه؛ فتذكّر به وتفكّر فيه، وإن لم يكن سمعه منه ﷺ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] يعنى: أذن القلب الحافظة ما سمعت الذاكرة لمَا وَعَتْ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] يعنى: أصغى بسمعه إلى سامعه، وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال: أُذن عَقِلَت عن الله تعالى أمرَه ونهيَه فوَعَتْه وعَمِلتْ به، كما وصَف

(١) فى (ط): «فهذا علم الأحكام والفتيا».

سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله فى تمام وصفهم: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة:١١٢].

وقد روينا عن علىٍّ رضى الله عنه: اطلُبُوا العلم تُعرَفوا به، واعمَلوا به تكونُوا من أهله. وقال أيضًا رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتَمجَّه القلوبُ.

وقال بعض السلف: من ضحك ضَحْكَةً مَجَّ مجةً منَ العلْم. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ليس العلمُ ما حَواهُ القِمَطْرُ إنَّما العلمُ مَا وَعَاه الصَّدْرُ.

وإذا جمع العالمُ ثلاثًا تَمّت النِّعْمةُ به على المتعَلِّم: الصَّبْرَ، والتَّوَاضُع، وَحُسْنَ الخُلُق. وإذا جمع المتعَلّمُ ثلاثًا تَمَّتِ النِّعْمةُ بِهِ عَلَى العالم: العقلَ، والأدَبَ، وَحُسْنَ الفهم.

والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بدّ للعَالِم باللهِ تعالى منْ خَمْسٍ هِىَ عَلامةُ عُلَماءِ الآخرَة: الخشية، والخُشُوعِ، والتَّواضُع، وحُسْنِ الخلُق، والزهْد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر:٢٨]. وقالَ تعالى: ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾ [آل عمران:١٩٩] الآية. فلا بدّ له منَ التواضعِ وَحُسْنِ الخُلُقِ، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِى أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ [الحجر:٨٨ ـ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةَ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية، والزهْدِ فى الدُّنيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ [القصص:٨٠]. فَمَنْ وُجِدَ فِيهِ هَذِهِ الخلالُ فَهُوَ مِنَ العُلَماءِ باللهِ عزّ وجلّ.

واعلَمْ أنَّهُ إنما يَستَبِينُ العالِمُ عِندَ المشكِلاتِ فى الدِّين، ويُحتَاجُ إلى العارفِ عِندَ

شبُهات حَاكَتْ فى الصُّدُور، كما قال عَبْدُ الله بن مسعود رضى الله عنه: لا تَزالُونَ بخيرٍ ما إذا حاك فى صَدْرِ أحَدِكُم شَىءٌ وَجَد من يُخبِرُهُ به ويَشْفيه مِنهُ. وايمُ اللهِ أوْشَكَ أن لا تَجِدوا ذلك.

وكما قال له رسولُ الله ﷺ: «أىُّ الناسِ أعْلمُ؟ فقال: الله ورسوله أعلم. فقال: اعْلَمُهُمْ بالحقِّ إذَا اشتبَهت الأمورُ ووَقَعت المشكلاتُ، وإنْ كَانَ يَزْحَفُ على استِه». فكَذلكَ إذا اختلفَ الناسُ وإنْ كَانَ فى عَمَلِه تَقْصيرٌ. وكَما قالَ فى حديث عُمْرَانَ بن حُصَينٍ: «إنَّ اللهَ تعالى يُحبُّ البصَرَ الناقدَ عندَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ، والعقلَ الكَاملَ عندَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ، ويحب السَّخاءَ ولوْ عَلَى تَمْراتٍ، ويحب الشَّجاعةَ ولو عَلَى قتل الحيَّاتِ».

وقَدْ حَصَلَ لنا فى زَمانِنا هذا مِثْلُ مَا خَافَهُ ابنُ مسعودٍ؛ لأنَّ مُشْكلَةً لوْ وردَتْ فى مَعَانِى التَّوحِيدِ، وشُبهةً لوِ اخْتلجَتْ فى صَدْرِ مُوقِنٍ[1] من معَانى صفَات المُوحَّد، وأرَدْتَ كشفَ ذَلكَ عَلَى حَقِيقَةِ الأمر بما يَشْهَدُهُ القلبُ الموقنُ، ويَثلجُ لهُ الصَّدرُ المشرُوحُ بالهدَى، كان ذلك عزيزًا فى وَقْتِكَ هذا، ولَكُنتَ فى استكْشَافِ ذلكَ بين خمْسَةِ نَفَرٍ:

مُبتدعٍ ضَالٍّ، يُخبِرُكَ برأيِهِ عَنْ هَواهُ فَيزيدُكَ حَيْرةً.

أوْ مُتكَلِّمٍ، يُفْتيكَ بقُصُورِ عِلْمِه عَنْ شَهَادَة الموقِنين، وبقياسِ معقولِهِ على ظاهِرِ الدين. وهذا شُبْهةٌ، فكيف تنكشفُ شبهةٌ بشُبُهَةٍ؟!

أو صُوفِىٌّ شاطحٍ تائه غالط يُجاوزُ بكَ الكتابَ والسُّنَّةَ لا يُباليهما، ويُخالفُ بقوله الأئمَّةَ لا يَتحاشَاها، فيُجِيبُكَ بالظَّنِّ والوسواسِ، والحَدْس والتَّمويه، ويمحُو الكونَ والمكان، ويُسقِطُ العلمَ والأحكَامَ، ويُذْهِبُ الأسْماءَ والرُّسُومَ. وهَؤلاءِ تائهونَ فى مفازة التيهِ لم يقفوا على الحجَّة، قد غَرقوا فى بحر التوحيد، لم يُجْعَلوا أئمَّةً للمتَّقين، ولا حُجَّةً للموقنين. وهذا ساقطُ القَوْلِ، إذ ليسَ مَعَهُ حُجَّةٌ، ولا هُو على سَنَنِ المحجّةِ.

---

(١) فى (ط): «مؤمن» وأثبت ما فى (ك).

أو مُفْتٍ عالمٍ عندَ نفسه، موسوم بالفقه عندَ أصحابه، يقولُ: هذا من أحكام الآخرة ومن علم الغيب لا نتكلَّمُ فيه؛ لأنّا لم نُكلَّفْهُ، وهو فى أكثر مناظرته يتكلَّمُ فيما لم يُكلَّفْ، ويُجادلُ فيما لم يَنْطِقْ به السلفُ، ويتعلَّمُ ما علمهُ بتكلُّفٍ، ولا يعلمُ المسكينُ أنه كُلِّفَ علْمَ يقينِ الإيمان، وحقيقةَ التوحيد، ومعرفةَ إخلاص المعاملة، وعِلْمَ ما يقدَحُ فى الإخلاص، ويخرجُ من جُمْلته قبل ما هو فيه؛ لأنَّهُ متكلفٌ لبعض ما هُو يَبْتغيه؛ لأنَّ علْمَ الإيمَان، وصحَّةَ التوحيد، وإخلاصَ العبوديَّة للربُوبيَّة، وإخلاصَ الأعمَالِ مِنَ الهوَى الدنْيويَّة، وما يتعلقُ بهَا منْ أعْمال القلوب ـ هو من الفقْه فى الدِّين، ونعْت أوصاف المؤمنين؛ إذ مقتضاهُ الإنذارُ والتحذيرُ؛ لقوله تعالى: ﴿**لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**﴾ [التوبة:١٢٢] الآية، ولقولِ الرسُولِ ﷺ: «تعلَّمُوا اليقينَ فإنى متعلِّمٌ مَعَكُم»، ولقول الصحابة رضى الله عنهم: «تعلَّمنا الإيمان، ثُم تعلمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا»، فهذا ـ مزيدًا ـ الهدايةُ بالإيقان، وهُو زيادةُ المؤمنينَ فى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**فَزَادَهُم إِيمَانًا**﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم:٧٦].

ولا يشعرُ أنَّ حُسْنَ الأدَبِ فى المعامَلَةِ بمعرفةٍ ويقينٍ هُو من صفات الموقنين، وذلك هُو حالُ العبد فى مقامه بينه وبين ربِّه عزّ وجلّ، ونصيبُه من ربِّه تعالى، وحَظُّهُ من مزيد آخرته. وذلكَ معقُودٌ بشَهادة التوحيد، المقترنة بالإيمان، الخالصة من خفايا الشِّرْكِ وشُعَبِ النفاق، وهو مقترنٌ بالفرائض، وفَرْضُ فَرضِهَا الإخلاصُ بالمعاملة. وإن عَلِمَ مَا سوى هذا[1] ممَّا قد أُشْرِبَ قلبُهُ وحُبِّبَ إليه من فضول العلوم وغرائبِ الفهوم، إنما هو حوائجُ الناس ونوازلُهم، فهو حِجابٌ عن هذا واشتغالٌ عنهُ.

فآثرَ هذا الغافلُ[2] ـ لقلَّةِ معرفته بحقيقةِ العلم النافع ـ ما زُيِّن له طَلَبُهُ وحُبِّبَ

(١) عبارة (ك): «وهو مقترن بالفرائض، وفرض فرضها المقترن بالمعاملة، وعلم ما سوى هذا».

(٢) فى (ك): «البائس».

إليه قصدُهُ، آثر حوائجَ الناسِ وأحوالهم على حاجته وحاله، وعَمِلَ في أنصبتهمْ منه في عاجلِ دُنياهُم مِنْ نَوازلِ طوارقهمْ وَفُتْياهُم، ولم يَعْمل في نصيبه الأوفر من ربِّه الأعلى؛ لأجل آخرته التي هي خيرٌ وأبقى؛ إذ مرجعهُ إليها وَمَثْواه المؤبَّدُ فيها، فآثرَ التقرُّبَ منهُمْ على القُربةِ من ربه عزّ وجلّ، وترك ـ للشُّغل بهم ـ حظَّهُ من الله تعالى الأجزل، وقدّم التفرُّغَ لهم على فراغ قلبه لمولاه وشُغله بخدمته وتذكُّر رضاه[1]، واشتغل بإصلاح ألسنتهم عن صلاحِ قلبه، وظواهرِ أحوالهم عن باطن حاله، وكان سبب ما بُلِي به حُبُّ الرياسة وطلبُ الجاه عند الناس والمنزلة بمُوجب السياسةِ والرغبة في عاجل الدُّنيا وعزِّها، بقلَّة الهمَّة وضعف النيَّة في عاجل الآخرةِ وذُخرِه، فأفنَى أيامَه لأيامِهِمْ، وأذهَبَ عُمْرَه في شهواتِهِمْ؛ ليسمِّيَهُ الجاهلون بالعلمِ عَالمًا، وليكونَ في قلوبِ البطَّالينَ عِندَهُمْ فاضلاً، فورَدَ القيامةَ مُفْلِسًا، وعندَ ما يراهُ من أنصبةِ المقرَّبينَ مُبْلسًا، إذ فازَ بالقُربِ العاملون، وربح الرضا العالمون، ولكِنْ أنَّى له؟ وكيفَ بنصيب غيره وقدْ جعلَ اللهُ تعالى لكلٍّ عملٍ عاملاً ولكلٍّ علم عَالمًا؟ ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، و«لكلٍّ مُيسر لما خلق له».

هذا فصلُ الخطاب بينهما.

وأيضًا فإن الأمة لم تختلف أنَّ علمَ التوحيدِ فريضةٌ، سيَّما إذا وقعت الشُّبُهات وأُدخلَتْ فيه المشكلاتُ. وإنما اختلفوا في مسألتين: أيُّ شيءٍ هُو التوحيدُ؟ وفي كيفية طلبه والتوصل إليه. فمنهم من قال: بالبحث والطلب. ومِنْهُمْ من قال: بالاستِدلالِ والنظر. ومنهم من قال: بالسمع والأثرِ. وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم. وقالَ بعضُ النَّاس: يُدْرَكُ دَرَكهُ بالعجزِ والتَّقصير عن بُلُوغِ دَرَكِهِ.

والرجلُ الخامسُ من العلماء: هُو صاحبُ حديثٍ وآثار، وناقلُ رواية الأخبار، يقولُ لك إذا سألته: اعتقد التسليم وأمرَ الحديث كما جاء، ولا تُفَتِّشْ. وهذا يتلُو المفتي في السّلامةِ، وهو أحسنُهُم طريقةً، وأشبهُهُم بسلفِ العامَّة خليقةً، ليْسَ

---

(١) في (ط): «وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه، لما قدم لغده من تقواه بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه» وهي عبارة مضطربة، وأثبت عبارة (ك) لأنها أدق.

عندَه شهادةُ يقينٍ، ولا معرفةٌ بحقيقة ما رآه، ولا هو مُشاهدٌ واصفٌ لمعنَى ما نقلَه، إنَّما هو للعلمِ راويةٌ، وللأثرِ والخبرِ ناقلةٌ عَنْ غير خُبْرٍ لِخَبرِه، ولا فقهٍ فى نقلِه. فَهُوَ على بيِّنةٍ من ربِّه، وليس يتلوهُ شاهدٌ منهُ.

وقد كان الزُّهْرِى يقول: حدَّثنى فلان، وكان من أوعيةِ العلم، ولا يقولُ: وكان عالمًا. وكان مالكُ بنُ أنس رحمه الله يقول: أدركتُ سبعين شيخًا من التابعين، منهم عُبَّادٌ، ومنهم مستجابُ الدعاءِ، ومنهُمْ مَن يُستَسقَى به، ما حَملْتُ عنهُمْ علمًا قَط. قيل: ولمَ ذاك؟ قال: لم يكُونُوا من أهلِ هذا الشأن. وفى روايةٍ: لم يكونوا يدرون ما يُحدِّثونَ بهِ، ولم يكن لهم فقهٌ فيما يُسألونَ عنه.

قال مالك: ويَقْدُم علينا ابنُ شهاب الزهرى، وهو حديثُ السِّنِّ، فنزدحمُ عليهِ حتى لا نكاد نَصِلُ إليه؛ لأنه كان عالمًا بما يُحدِّث به. فهذا بمعنَى ما رُوِىَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «رُبَّ حَاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، ورُبَّ حَاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه».

وقال بعضُ السلف: ما كانوا يعدُّون علمَ مَنْ لا يعرفُ اختلافَ العلماء علمًا. وقال آخر: مَنْ لم يَعرفِ اختلاف العلماء لم يَحِلَّ له أن يفتى، ولم يُسمَّ عالمًا. وقال قتادةُ وسعيدُ بن جبير: أعلمُ الناس أعلمُهم باختلاف الناس. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: إذا كتب الرجلُ مائة ألف حديثٍ له أن يُفْتِىَ؟ قال: لا. قيل: فمائتى ألف حديث؟ قال: لا. قيل: فثلاثمائة ألف حديثٍ؟ قال: أرْجُو. وفى التوراةِ مكتوبٌ: «الطَّبيبُ الحاذقُ للعلَّةِ الباطنةِ يَصْلُحُ».

وكَتَبَ سلمانُ الفارسى من المدائن إلى أبى الدرداء، وكان قد آخى رسُولُ الله ﷺ بينهما فيمَنْ آخى: يا أخى بلغنى أنك أقعدتَ طبيبًا تُداوى المرضى. فانظر، فإن كنتَ طبيبًا فتكلَّمْ فإن كلامَكَ شفَاءٌ، وإن كُنتَ مُتطبِّبًا فاللهَ اللهَ لا تقتُلْ مُسْلمًا. قال: فكانَ أبو الدرداء يتوقفُ بعدَ ذلك إذا سُئِل عن شىءٍ. وسألهُ إنسانٌ عن شىءٍ فأجابه ثُم قالَ: رُدُّوهُ، فقالَ لهُ: أعِدْ علَىَّ، فأعَادَ، فقَالَ: مُتطبِّبٌ والله، فَرَجعَ فى جوابه.

ولَعَمْرى أنَّهُ قد جَاءَ عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطبَّبَ ولم يُعلَم منهُ طبٌّ فقَتَلَ

فهو ضامنٌ. وقد كان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقولُ: سلوا جابرَ بن زيدٍ، فلو نَزلَ أهلُ البصرةِ على فُتياهُ لَوسِعَهم، وكان من صالحى التابعين.

وكان ابنُ عمر رضى الله عنهما إذا سُئِل عن شيءٍ يقولُ: سلُوا سعيدَ بنَ المسيَّب. وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضى اللهُ عنه يقولُ: سلُوا مَولانا الحسنَ؛ فإنه قد حَفِظَ ونَسينَا.

وقال بعض البصريِّين: قَدِمَ علينا رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فأتينا الحسن فقُلنا: ألاَ نذهب إلى هذا الصَّحَابى فنسألهُ عن حديثِ رسول الله ﷺ وتجيء معنا؟ قال: نعم، فاذهبُوا. قال: فجعلنا نسألُه عن حديثِ رسولِ الله ﷺ وجعل يحدِّثُنا حتَّى حدَّثنا عشرين حديثًا.

قال: والحسن يُنصِتُ يَستمعُ إليه. ثُمَّ جثا الحسنُ على ركبتيه فقال: يا صاحبَ رسول الله أخبرْنا بتفسيرِ ما رويتَ عن رسولِ الله ﷺ حتى نفقهَ فيه. فسكتَ الصحابى وقال: ما عندى إلا ما سَمِعتُ.

قال: فابتدأ الحسنُ ـ رحمه الله ـ يُفسِّرُ ما رواهُ، فقال: أما الحديثُ الأوّلُ الذى حدثْتَنَا به فإنّ تفسيره كيت وكيت، والحديثُ الثانى تفسيرهُ كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديثَ كُلَّها التى حدَّثنا بها وأخبرنا بتفسيرها.

قال: فلا نَدْرى نَعْجَبُ من حُسْنِ حفظِه إياهُ وأدائه الحديث، أو من علمه وتفسيره؟!

قال: فأخذَ الصحابىُّ كَفًا من حصًى وحَصَبَنا به، ثُمَّ قال: تَسألونى عن العِلم وهذا الحَبرُ بين أظهُركُمْ.

فهؤلاء أصحابُ النبىِّ ﷺ يردُّون الأمور فى الفُتْيا وعلمِ اللسانِ إلى مَنْ هو دُونهم فى القدْر والمنزلة، وهُو فى علمِ التوحيدِ والمعرفَةِ والإيمانِ فوقهم درجات، ولا يَرْجِعُونَ إليهم فى الشُّبهات، ولا يردون إليهم فى علمِ المعرفة واليقين. فهذا كما قيل: إنَّما العلمُ نُورٌ يَقْذِفُه الله تبارك وتعالى فى قلوبِ أوليائه. فقد يكونُ ذلك تفضيلاً للنظراءِ بعضهم على بعضٍ، وقد يكُونُ تخصيصًا للشَّبَابِ على

الشُّيوخ، ولمن جاء بعد السَّلَف منَ التَّابعين، وَرُبَّمَا كَانَ تكرمَةً للخاملينَ المتواضعين؛ لينبِّه عليهم ويعرفون شأنَهُمْ؛ ليَعظُمُوا ويُرْفَعُوا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص:٥].

والنُّور إذا جُعِلَ فى الصَّدْرِ انشرح القلبُ بالعلم، ونظر باليقين فنطق اللسانُ بحقيقةِ البيانِ، وهُو الحكمةُ التى يُودعها الله تعالى فى قُلُوبِ أوليائه، كما جاء فى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، قيل: الإصابة فى القول، فكأنَّه يُوفَّقُهُ للحَقِيقَةِ، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قيل: الفهمُ والفِطْنة.

وقد قال رسول الله ﷺ فى وصفِ الهدايةِ حين تلا قوله عز وجلّ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] فقيل: «يا رسول الله، ما هذا الشرح؛ فقال: إنَّ النُّورَ إذا قُذِفَ فى القلب انشرحَ له الصَّدْرُ وانفسَحَ. قيلَ: فهَلْ لذلكَ من علامة؟ قال: نعَم، التَّجَافى عن دارِ الغُرور، والإنابةُ إلى دار الخُلود، والاستعداد للموتِ قبل نزوله».

فذكر سببَهُ: الزُّهْدَ فى الدنْيا، والإقبالَ على خدْمةِ المولى، فحُسنُ التوفيقِ والإصابةُ فى العلمِ مواهبُ من الله عزّ وجلّ، وأثرةٌ يختصُّ بها من يشاءُ. كما سُئِل أبو مُوسَى الأشعَرِىُّ ـ وهو أميرُ الكوفة ـ عن رجلٍ قُتِلَ فى سَبيلِ اللهِ مُقْبلاً غير مدبر، أيْنَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنَّة. فقال ابنُ مسعودٍ للسائلِ: أعدْ على الأمير فُتْيَاكَ فلعلَّه لم يَفْهَمْ. قال السائلُ: قلتُ أيُّها الأميرُ: مَا قولُكَ فى رجلٍ قاتلَ فى سبيلِ الله فقُتِلَ مُقْبلاً غيرَ مدبرٍ أينَ هُو؟ فقال أبو موسى: فى الجنة. فقال ابن مسعود رضى الله عنه: أعِدْ على الأمير فلعلّهُ لم يفهم، فأعاد عليه ثلاثًا، كل ذلك يقول أبو موسى: فى الجنة. ثم قال: ما عندى غيرُ هذا فما تقولُ أنت؟ فقال ابن مسعود: لكنى لا أقول هكذا، قال: فما قولُكَ؟ فقالَ: أقولُ: إن قُتِلَ فى سبيلِ الله فأصابَ الحقَّ فهُوَ فى الجنةِ. فقال أبو موسى: صدق، لا تسألونى عن شىءٍ ما دام هذا الحبرُ بين أظهُركم.

والقولُ فى تسليم أخبارِ الصفَاتِ والسُّكُوتِ عنْ تَفْسيرِها كما قال أصحابُ الحديث، إلا أن معرفةَ معانى الأسماء والصِّفات وشُهودهَا ينفى الظنَّ والوسْوَاسَ فِيهَا، وتركَ التشبيهِ والتمثيلِ بها والطُّمأنينةَ إلى اليقينِ بالمعرفةِ بمُشاهدَتِها هو مُقامُ الموقنين، واعتقادَ أنها صفاتٌ لله تعالى يتجلَّى بها وبما شاءَ من غيرها بلا حَدٍّ ولا عدد يُظْهِرُ بصفةٍ صفةً كيف شاء، غيرَ موقوفٍ على صفة، ولا محكومٍ عليه بصُورة، بلا إظهار غيرته، بل هُو كيف ظهر، وبأيِّ وصفٍ تجَلّى، مع نفى الكيفيَّةِ والمثلية لفقدِ الجنس والجوهَرِيَّة، هُو مُقامُ المقرَّبين من الشُّهداء، وهؤلاءِ هُمُ الصِّدِّيقُون، وخُصُوصُ الموقنين.

فمن عُدِل بهِ عن وجهَة هؤلاء، ولم يُواجِهْ بشهادتهم [عن أصل معرفتهم][1] عُدِلَ إلى التسليم والتصديق، فوقفَ عندَهُ، فكان مَعْقِله واستراحته. وليسَ بعد هؤلاء مَقَامٌ يُمْدَحُ، ولا وصفٌ يُذكَرُ. فمَنْ فَتَّشَ ذلك بعقلِه، وفسَّرهُ برأيه، دخل عليه التشبيهُ، أو خَرَجَ إلى النَّفْيِ والإبطالِ.

ومن الدليل على فضل هذا العلمِ على سائر العلوم ما جاء فى الأخبار المأثورة عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعينَ فى فضل مجالس الذِّكرِ وفَضْلِ الذَّاكرين، إنما يُريدُون به علمَ الإيمان والمعرفة وعلومَ المعاملاتِ، والتفقُّهَ فى بصائر القلُوب، والنظرَ بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالسَ القَصَص، ولا يَعْنُونَ بذلكَ القُصَّاصَ؛ لأنَّهُمْ كانُوا يَرَوْنَ القَصَصَ بدْعَةً ويَقُولُونَ: لَم يُقَصَّ فى زَمن رسُول الله ﷺ، ولا أبى بكرٍ، ولا عُمر، حتى ظهرت الفتنةُ، فلمّا وقعت الفتنةُ ظهرَ القُصَّاصُ.

ولَمَّا دَخَلَ عليٌّ رضى الله عنهُ البصرةَ جَعَلَ يُخْرِج القُصَّاصَ من المسجدِ ويقول: لا يُقَصُّ فى مَسْجدِنَا، حتّى انتهَى إلى الحَسَنِ وهو يَتكلَّمُ فى هذا العلمِ، فاستمع إليه، ثم انصرف ولم يُخرِجْه.

وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد، فوجدَ قاصًّا يقُصّ، فوجّه إليه صاحبَ

(١) ساقطة من (ص).

الشُّرْطةِ أن أخرِجَهُ من المسجد، فأخرجهُ.

فلو كان القَصَصُ من مَجَالِس الذِّكْرِ ـ والقُصّاصُ عُلماءُ ـ لما أخرَجهُمْ ابنُ عُمرَ من المسجدِ، هذا معَ ورعه وزهده.

وقد روينا عن ابن شَوْذَب، عن أبى النّياح، قال: قلتُ للحسن: إمامُنا يَقُصّ فيجْتَمعُ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ فيرفعُونَ أصواتَهُمْ بالدعَاءِ ويمدُّون أيديَهُمْ. فقال الحسنُ: رَفْعُ الصوْتِ بالدُّعاءِ بِدْعةٌ، ومَد الأيدى بالدُّعاءِ بدعةٌ.

وروى أبُو الأشهبِ عن الحسن: القَصَصُ بدْعة. وقيل لابن سيرينِ: لَوْ قَصَصْتَ على إخوانكَ، فقال: قد قيلَ: لا يَتكلَّمُ عَلَى الناس إلاَّ أحَدُ ثلاثة: أميرٌ أو مأمورٌ أو أحمقُ. فلستُ بأميرٍ ولا مأمور، وأكره أن أكون الثالثَ.

ورُوينا عَنْ عَوْنِ بنِ مُوسَى، عن معاوية بن قُرَّةَ قال: سألتُ الحسنَ البصْرِىَّ قلت: أعُودُ مريضًا أحبُّ إليكَ أوْ أجْلِسُ إلى قَاصٍّ؟ فقال: عُدْ مَريضَك. فقلت: أشيِّعُ جَنَازةً أحبُّ إليك أو أجْلِسُ إلى قَاصٍّ؟ قال: شيِّع جنازتك. قلتُ: وإنِ استعانَ بِى رَجُلٌ فى حاجةٍ أعينه أو أجلسُ إلى قاصٍّ؟ قال: اذهب فى حاجتك، حتى جعلهُ خيرًا من مجالس الفراغ.

فلو كانت مجالسُ الذكرِ عندهم هى مَجَالسُ القُصّاص، ولو كان القَصَصُ هُوَ الذِّكْر، لما وَسعَ الحسنُ أن يثبِّطَ عنهُ، ولا يُؤثِرَ عليهِ كثيرًا من الأعمال؛ لأنهُ قَدْ كَانَ يَدعُو إلى اللهِ تعالى بالتوحيدِ، ويَتكلَّم فى علْمِ المعرفةِ واليقين والذَّاكِرين لله تعالى، وحضورُ مجلسِ الذكرِ من مزيدِ الإيمانِ.

وقد رفع الله تعالى مقامَ الذَّاكرين فوق مقام المؤمنين فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [الأحزاب:٣٥]، فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامَات.

وقَدْ رُوينا فى خَبَر أبى ذرٍّ: «حضورُ مجلسِ ذكر أفضلُ من صلاةِ ألفِ ركعة، وحُضورُ مجلسِ علم أفضلُ من عيادة ألفِ مريض، وحضورُ مجلس علم أفضلُ من شهود ألف جنازة. قيل: يا رَسُولَ الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهَلْ تنفعُ

قِرَاءةُ القرآن إلا بعلمٍ؟».

وقال بعض السلفِ: حضور مجلسِ ذكرٍ يكفِّرُ عشْرةً من مجالس الباطلِ.

وأما عطاءٌ فإنه قال: مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مَجْلسًا من مجالسِ اللّهْوِ.

وحدثُونا عن معاذٍ لأعلمِ قال: رآنى يُونُسُ بنُ عُبيدٍ وأنا فى حَلْقةِ المعتزلةِ، فقال: تعالَ، فجئتُ، فقال: إن كُنتَ لا بدّ فاعلاً فعليك بحلقةِ القُصَّاص.

وقد كان الحسنُ البصرىُّ أحد المذكِّرينَ، وكانت مجالسُه مجالسَ الذكْرِ، يخلُو فيها مَعَ إخوَانِه وأتباعِهِ منَ النسَّاك والعبَّادِ فى بيتِهِ مثلَ: مالك بن دينارٍ، وثابت البنانيّ، وأيُّوبَ السَّخستانيِّ، ومُحمد بن وَاسعٍ، وفرقدِ السنجِيِّ، وَعَبدِ الواحدِ بن زيد، فيقول: هاتُوا انشرُوا النورَ، فيتكلمُ عليهم فى هذا العلم من علم اليقينِ والقدرة، وفى خواطرِ القلوبِ وفسادِ الأعمالِ وَوسواسِ النفُوسِ. وربما قنَعَ بعضُ أصحابِ الحديثِ رأسَهُ فاختفَى مِنْ ورائهِمْ ليسمَعَ ذلكَ، فإذا رآه الحسنُ قال له: يا لُكَعُ وأنتَ مَا تصنَعُ هَهنا؟ إنّما خَلَونا مع إخواننا نتذاكرُ.

والحسنُ ـ رحمه اللهُ ـ هُو إمامُنَا فى هذا العلمِ الَّذى نتكلمُ بِهِ: أثرَه نقفُو، وسَبيلَه نتَّبعُ، ومِنْ مشكاتِهِ نستضىءُ. أخذنا ذلك بإذنِ الله تعالى إمامًا عن إمامٍ إلى أن ينتهىَ ذلك إليه.

وكان من خيارِ التابعين بإحسانٍ. قيل: ما زال يعى الحكمةَ أربَعينَ سنةً حتى نَطَقَ بها. وقد لقى سَبْعينَ بَدْرِيًا، ورأى ثَلاثمائةِ صحابىٍّ، ووُلِدَ لليلتين بَقِيتا من خلافة عمرَ بن الخطَّابِ رضى الله عنه سنة عشرين من التاريخ. وُلِدَ بالمدينةِ، وكانتْ أمهُ مولاةً لأمّ سلمةَ زوجِ النبىِّ ﷺ، ويقال: إنَّها ألقمتهُ ثَدْيَهَا تعلّله حين بكى، فدرَّ ثديُها عليهِ. وكان كلامُه يُشْبِّهُ بكلامِ رَسُول الله ﷺ. ورأى عثمانَ بن عفَّان، وعلىَّ بن أبى طالبٍ، ومَنْ بقى فى وقتِهِ من العشرةِ. ثم رأى مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ من عهدِ عثمان ومن سنة نيِّفٍ وعشرين من الهجرة، إلى سنةِ نيفٍ وتسعينَ.

ومن آخرِ مَنْ ماتَ من أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالبصرةِ: أنسُ بنُ مالكٍ،

وبالمدينة: سهلُ بنُ سعد الساعدىّ، وبمكةَ: أبو الطُّفيلِ، وباليمنِ: أبيضُ بنُ جمالٍ المازنىّ، وبالكوفةِ: عبدُ الله بنُ أبى أَوْفَى، وبالشامِ: أبوُ قرصافةَ، وبخراسانَ: بُريدةُ الأسْلَمىُّ.

ودخلَت سَنَةُ مائةٍ منَ التاريخ ولم يبق على وَجْهِ الأرض عينٌ تَطْرفُ رأتْ رسول الله ﷺ فى جميع أطراف الأرضِ.

ثم توفى الحسنُ فى سنةِ عشرٍ ومائةٍ، وكان أبو قتادةَ العدوىّ يقول: عليكُمْ بهذا الشيَّخ فوالله مَا رأينا أحَدًا لم يصحبْ رسولَ الله ﷺ أشبهَ بأصحاب رسُول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: كُنَّا نُشبِّهُه بهَدْى إبراهيمِ الخليلِ ﷺ فى حِلْمِه وخُشُوعِه ووقارِه وَسكِينته، فكان على شمائله.

ونذَرت امرأة بالبصرةِ نذْرًا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسُج ثوبًا من غزلهَا وَصفته، وتكْسُوهُ خيرَ أهْلِ البصرةِ، فرأت تَمامَ نذْرِها، فَوفَّتْ بِمَا نذرَتْ، ثُمَّ سألت: مَنْ خَيرُ أهلِ البصرةِ؟ فقالوا: الحسن.

وكان الحسنُ رضى الله عنه أول من أنهجَ سبيلَ هذا العلمِ، وفَتَقَ الألسنةَ به، ونَطَقَ بمعانيه، وأظهرَ أنوارَهُ، وكشفَ به قِنَاعَهُ، وكان يتكلمُ فيه بكلامٍ لم يَسْمَعُوهُ من أحدٍ من إخوانِه، فقيل له: يا أبا سعيدٍ، إنكَ تتكلمُ فى هذا العلم بكلامٍ لم نسمَعْه مِن أحدٍ غيرِكَ، فممّن أخذتَ هذَا؟ فقال: مِنْ حُذيفَةَ بنِ اليَمانِ.

قيلَ: وقالُوا لحذيفة بنُ اليمانِ: نَرَاكَ تتكلمُ فى هذا العلمِ بِكَلامٍ لا نسمعُه من أحدٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فمن أين أخذْتَه؟ فقال: خصَّنى به رسولُ الله ﷺ، كان الناسُ يسألونهُ عن الخير، وكنت أسألهُ عنِ الشَّرِّ مخافةَ أن أقعَ فيه، وعلمتُ أن الخيرَ لا يَسبِقُنى. وقال مرةً: فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يَعْرفُ الشَّرَّ لا يَعرفُ الخيرَ.

وفى لفظ آخر: كان الناس يقولون: يا رسول الله، ما لِمَنْ عَمِلَ كَذا وكَذا؟ يسألونه عن فضائلِ الأعمال، وكنتُ أقولُ: يَا رَسُولَ الله، مَا يُفْسِد كَذا وكَذا؟ فلمَّا رآنى أسألُ عَنْ آفاتِ الأَعْمَالِ خَصَّنى بهذا العلم.

وكان حذيفةُ قد خُصَّ بعلم المنافقين، وأُفرِدَ بمعرفة علم النِّفاق، وبسَرائر العلم، ودقائق الفهم، وخفايا اليقين، من بين الصحابة. فكان عمرُ وعثمانُ وأكابرُ أصحاب رسول الله ﷺ يَسْألونهُ عن الفتن العامة والفتن الخاصَّة، ويَرْجعُون إليه فى العلم الذى خُصَّ به، ويسألونَهُ عن المنافقين، وهلْ بَقى منهم ممَّن ذكَر رسولُ الله ﷺ[1] وأخْبرَ عنهم أحَدٌ؟ فكانَ يخبرُ بأعدادهم ولا يذكُر أسماءَهُم. وكان عمرُ يستكشفُه عَنْ نفسه، هَلْ يعلم فيه شيئًا من النِّفاق؟ فبرَّأه منه. ثمَّ يَسْأَلُه عَنْ عَلامات النِّفاق، وآية المنافق، فيخبرُ منْ ذلكَ بما يصلُحُ مما أُذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوزُ له أن يُخْبرَ به، فيُعذَرَ فى ذلك.

وكَانَ عُمرُ رضى الله عنهُ إذا دُعِىَ إلى جنازة ليصلِّى عليها نظَر، فإن حضَر حذيفةُ صلَّى عليها، وإن لم ير حذيفةَ لم يصلِّ عَلَيها. وكان حذيفةُ يسمَّى «صاحبَ السرِّ»، وكانَ [أكابرُ][2] أصحابِ رسُولِ الله ﷺ إذا سُئلوا عَنْ عِلْمٍ يقول أحدُهُم: تسألونى عن هذا وصاحب السر فيكم؟ يعنى حذيفةَ.

وروينا عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه لَمَّا حدَّث عن النبى ﷺ فى فضْلِ مجلسِ الذكر: «لأنْ أقعدَ معَ قومٍ يذكرونَ الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمسِ أحبُّ إلىَّ مِنْ أنْ أعْتِقَ أربَع رِقاب» قالَ: فالتفَتَّ إلى يَزيد الرَّقَاشىِّ وزياد النُّمَيرى فقَال: لم تكُنْ مجالسُ الذكْرِ مِثْلَ مجالسكُمْ هَذه؛ يقصُّ أحدُكم ويَخطُبُ على أصحابه ويَسْرُدُ الحديثَ سَرْدًا، إنَّما كنا نقعدُ فنذكرُ الإيمانَ ونتدبرُ القرآن ونتفقَّهُ فى الدِّينِ ونَعُدُّ نعمَ الله تعالى عَلَينَا.

وَقَدْ كان عبدُ الله بنُ رواحةَ يقول لأصحاب رسول الله ﷺ: تعالوا حَتَّى نُؤْمنَ سَاعَةً، فيجلسُونَ إليه فيذكِّرهُمْ العلمَ بالله تعالى والتوحيدَ والآخرة. وكان يَخلُفُ رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجتمع إليه الناسُ يُذكِّرهم الله تعالى وأيامَهُ ويفقِّههُم فيما قال رسولُ الله ﷺ. فربَّما خرجَ عليهم رَسُولُ الله ﷺ وهُمْ مجتمعونَ عندَه، فيَسْكُتُونَ، فيَجْلسُ إليهِمْ ويَأمرُهُمْ أنْ يَأخُذُوا فِيمَا كَانُوا فيه، ويَقُولُ ﷺ: «بهَذا

(١) فى (ط): «ممن ذكر الله تعالى» وأثبت ما فى (ك).

(٢) زيادة من (ك).

أُمِرْتُ وإلى هذا دَعَوْتُ». ورُوى نحوَ هذا عن معاذِ بن جبلٍ رضى الله عنه، وقد كان يتكلَّمُ بهذا العلمَ.

وقد رُوينا هذا مفسَّرًا فى حديثِ جُنْدُبٍ: «كنا مع رسول الله ﷺ فيعلِّمُنا الإيمان قبلَ أن نتعلّمَ القرآن». فسمَّى علمَ الإيمانِ إيمانًا، كما سمَّاهُ ابنُ رواحةَ؛ لأنَّ علمَ الإيمانِ وصفُ الإيمان، والعربُ تسمِّى الشيء بوصْفِه، وتسميه بأصْلِه، كما قالَ رسولُ الله ﷺ فى مثله: «تعلّموا اليقينَ» أى: علم اليقين. وكما قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤] أى من البكاء، فسماه بأصْله؛ لأنّ الحزنَ أصلُ البكاء.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ «أنه خرجَ ذات يومٍ فرأى مجلسَين، أحدُهُما يدعونَ الله تعالى ويرغبون إليه، والآخرُ يتفقهونَ فى الدّين ويعلّمونَ النَّاسَ، فوقف بينهما، ثم قال: أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاءَ أعطاهُمْ وإن شاءَ منعَهُمْ، وأمَّا هؤلاء فيعلِّمُون الناسَ ويفقِّهونَ فى الدين، وإنَّما بُعِثتُ معلِّمًا، ثم عدل إلى الذين يُفَقِّهونَ الناسَ فى الدينِ ويذكُرونَ الله تعالى فجلسَ مَعَهم».

ويُحكَى عن بعض السَّلَف قال: دَخَلْتُ المسجدَ ذاتَ يومٍ فإذا بحلْقتينِ؛ إحداهما: يقصُّونَ ويَدْعُون، والأخرَى: يتكلمُون فى العلم وَفقْه الأعمال. قال: فملتُ إلى حلقة الدعاء فجلسْتُ إليهم، فحملتنى عيناى فنمتُ، فهَتف بى هاتفٌ أو قال لى شخصٌ: جلسْتَ إلى هؤلاء وتركت مجلس العلم، أمَا لو جلسْتَ إليهم لوجدتَ جبريلَ عليه السلام عندهم.

فحقيقةُ الذِّكْرِ هُو العِلْمُ بالله تعالى، ألاَ تَسْمَعُ إلى ما رُوِىَ عَنِ النبىِّ ﷺ: «أفضلُ الذكرِ قولُ لا إله إلا الله»؟ وقال سبحانه وتعالى فى تصْديقه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:١٩]، وقال فى مثله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤].

ثم إنّ العلمَ من الذكرِ علمُ المشاهدَةِ، والمشاهدةُ صِفَةُ عَينِ القلب[1]، فإذا

(١) فى (ط): «عين اليقين» وأثبت ما فى (ك).

كُشفَ غَطاءُ العين شهدتَ معانى الصِّفَات بأنوارهَا، وهو مزيدُ نورِ اليقينِ الذى هُو كمالُ الإيمانِ وحقيقتُه. فهنالك ذَكرْتَ الموصُوفَ بمشاهَدةِ المذكُور بنور وَصفْه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿كَانتْ أعْيُنهُمْ فى غِطَاء عَنْ ذِكْرى﴾ [الكهف ١٠١]؟ فمن كانت عينُه فى كَشْفٍ من ذكره شهِدَ المذكورَ، فعندها ذكره، ثُمَّ وجَدَ[١] حَقيقة العلم بعد نسْيانِ الخلقِ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ ربَّكَ إذَا نَسيتَ﴾ [الكهف:٢٤]. فحقيقة الذِّكْرِ نسيانُ مَا سواه، كما أن حقيقةَ الإيمان الكفرُ بِكلِّ إلهٍ، كقَوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بالله﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقال بعض أهل الحديث: جاءنِى رَجُلٌ من إخوانِى من أهلِ المعرفة فقالَ: قد وجدتُ من قَلْبِى غَفْلةً، فأريدُ أن تحملنى إلى مجلس من مجالس الذِّكْر. فقلتُ: نعم. فسمَّى لَهُ مُذكِّرًا يتكلم فى علومِ العامَّة. قال: فحضرْنا عِندَهُ واجتمعَ الخلْقُ، فأخذَ فى شىءٍ من القَصَصِ [والإسرائيليات][٢] وذكرِ الجنةِ والنار. فنظرَ إلىَّ صاحبِى فقال: أليسَ زَعَمْتَ أن هذا يذكر الله ويُذَكِّرُ به[٣]، ويَذكُر أيامَه؟ فقلت: نعم هكذا هو عندنا. فقال: ما أسْمعُ إلا ذِكْرَ الخلقِ فأين ذِكْرُ الله تعالى؟ ثم توقَّفَ ساعةً ينتظرُ منهُ ما يُريدُ من علم المعرفة ومما سَمِعهُ من شيوخه الصوفيَّة. قال: فليسَ إلاَّ القصَصُ والحكاياتُ. فالتفتَ إلىَّ وقالَ: قُمْ بِنَا فإنَّه لا يَسَعُنى الجُلُوسُ؛ لأنَّه لا نِيَّةَ لى فى ذَلك. فقلتُ: أمَّا أنا فأستَحى أنْ أتخَطَّى الناسَ، فاصْنَعْ أنتَ ما تَرى، فقَامَ يَتخَطَّى الناسَ حتَّى خرجَ.

وقد رَوَى الزُّهْرِىُّ عن سالمٍ عَن ابنِ عُمَرَ أنهُ خَرَجَ من المسجدِ وقال: مَا أخْرَجَنى إلا القَصَّاصُ ولَوْلاهُ مَا خرَجْتُ. وقَال ضَمْرَةُ: قلت للثَّورىِّ رحمه الله: نستقبلُ القاصَّ بوجْهنا؟ فقال: ولُّوا البدعَ ظهوركَم. وقال ابنُ عونٍ: دخلتُ على ابن سيرينَ فقال: ما كَانَ اليومَ مِنْ خبرٍ؟ فقلت: نَهَى الأميرُ القُصَّاصَ أن يقصُّوا.

وحُدِّثْنَا عن أبى مَعْمَر عَنْ خلفِ بن خَلِيفة قال: رأيتُ سَيَّارًا أبا الحكم يَستَاكُ

(١) فى (ط): «ثم توجد» وأثبت ما فى (ك).

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «ويذكر ربه عز وجل» وهو تحريف صوبته من (ك).

عَلَى باب المسجدِ وَقَاصٌّ يقُصُّ فى المسجد. فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الحكم، إن الناسَ يَنْظُرونكَ، فقال: إنِّى فى خَيْرٍ مما هُمْ فِيه، أنا فى سُنَّة وهم فى بدعةٍ.

وقد فَعَلَ الأعمشُ أبلغَ منْ ذلكَ: دخَلَ البصرةَ وكان فيها غريبًا، فنظرَ إلى قاصٍّ فى الجامع وهو يقول: حدثنا الأعمشُ، عنْ أبى إسحاق، وحدثنا الأعمَشُ عَنْ أبِى وَائِلٍ، قالَ: فَتَوسَّطَ الأعمَشُ الحلْقَةَ ورفع يَدَهُ وجعل ينتفُ شعرَ إبطه، فبَصُرَ به القَاصُّ فقَال: يا شيخُ ألاَ تستحى؟ نحنُ فى علمٍ وأنتَ تفعلُ هذا؟ فقال له الأعْمَشُ: الذى أنا فيه أفضلُ من الذى أنتَ فيه. قال: كيف؟ قال: لأنى فى سُنَّة وأنت فى كَذِبٍ. أنا الأعمشُ وما حدَّثتك مما تقولُ شيئًا. فلمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذِكْرَ الأعمشِ انفَضُّوا عَنِ القَاصِّ واجتمعوا حولهُ، وقالوا: حدِّثْنا يا أبا محمدٍ.

وأخْبرونا عن محمد بن أبى هارونَ أن إسحاق حدَّثَهُ قال: صلَّيتُ مع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صلاةَ العيد، فإذا قاصٌّ يقُصُّ يلْعَنُ المبتدعَةَ، ويذْكُرُ السُّنة. فلمّا قضينا الصلاة وصِرْنا ببعضِ الطريق ذكر أبو عبدِ اللهِ القاصَّ فقال: ما أنفعَهُمْ للعامة! وإن كان عامةُ ما يُحدِّثُونَ به كَذِبًا.

وأُخبرتُ عن محمد بن جعفر: أن أبا الحارث حدَّثَهُ أنه سمعَ الإمامَ أحمد بن حنبلٍ رضى الله عنه يقُول: أكذبُ الناس القُصّاصُ والسُّؤَّال. وحدَّثونا عنه أيضًا أنهُ قال: ما أحوجَ الناس إلى قاصٍّ صدوقٍ؛ لأنهم يذكُرونَ الميزانَ وعذابَ القبرِ. قُلْتُ له: أنت تحضُرُ مَجَالِسَهُم؟ قال: لا.

ورُوينا عن حبيبِ بن أبى ثابتٍ عن زيادِ النُّمَيرىّ قال: أتيتُ أنسَ بن مالك وهو بالزاويةِ فقال لى: قصَّ. فقلتُ: كيف والناسُ يزعمُون أنه بِدْعَة؟ فقال: ليسَ شىءٌ من ذكر الله تعالى بدعةً. قال: فقصَصْتُ وجَعَلْتُ أكثرَ قَصَصى ودعائى رجاءَ أن يُؤمِّنَ. قال: فجَعلتُ أقُصّ وهو يؤمِّنُ. وقد كانُوا يَجْعَلُونَ الدعاء قَصَصًا.

وحدّث يوسفُ بن عطيةٍ، عن محمد بن عبدِ الرحمنِ الخرَّاز قال: فقد الحسَنُ عامرَ بنَ عبدِ الله العنبرىَّ فقال: اذهبوا بِنَا إلى أبى عَبْدِ الله، فأتاه الحسنُ فإذا عَامرٌ فى بيتٍ قد لَفَّ رأسَهُ، وليسَ فى البيتِ إلا رَمْلٌ. فقالَ له الحسنُ: يا أبَا عبد الله،

لم نركَ منذ أيام. فقال: إنى كنتُ أجلسُ هذه المجالسَ فأسمعُ تخليطًا وتغليطًا، وإنى كنتُ أسمعُ مَشْيخَتَنا فيما يروون عن نبيِّنا ﷺ أنه كان يقول: «إنَّ أصْفى الناس إيمانًا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فكرةً فى الدنيا، وأكثرُ الناسِ ضحكًا فى الجنَّةِ أكثرُهُم بُكَاءً فى الدنيا، وأشدُّ الناسِ فرحًا فى الآخرةِ أطولُهم حُزْنًا فى الدنيا». فوجدتُ البيت أخلى لقلبى وأقدرَ لى من نفسى على ما أُريدُ منها. قال الحسنُ: أمَا إنَّهُ لم يَعْنِ مجالسَنا هذه، إنَّما عَنَى مَجَالِسَ القُصَّاصِ فى الطرقِ الذين يَخْلِطونَ ويَغلَطون، ويُقدِّمون ويؤخِّرون.

وقد قسَّمَ بعضُ العلماءِ المتكلمين ثلاثةَ أقْسامٍ، فوَصَفَهُمْ بأماكنِهمْ فقال: المتكلمون ثلاثةٌ: أصحابُ الكراسىِّ وهُمُ القُصَّاصُ، وأصحابُ الأساطِينِ وهم المفتُون، وأصحابُ الزوايا وهم أهلُ المعرفةِ.

فمجالسُ أهلِ العلمِ باللهِ تعالى وأهلِ التوحيدِ والمعرفَةِ هى مَجالسُ الذِّكْرِ، وهى التى جاءتْ فيها الآثارُ. وفى الخبر: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعُوا فيها. قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذِّكْرِ». وفى الحديث: «إنَّ للهِ تعالى ملائكةً سيَّاحينَ فى الهواء فضلاً عن كتاب الحلَقِ، إذا رأوا مجَالس الذكرِ يُنادى بَعْضُهُمْ بَعْضًا: ألا هَلُمُّوا إلى بُغْيتِكُمْ، فيأتوهُمْ حتى يجلِسُوا إليهم فيحفُّونَ بِهِم ويستمعون منهُمْ، ألا فاذكُروا اللهَ واذكُروا أيامه».

وقال وهب بن منبه اليمانى: مجلس يُتَنازَعُ فيه العلمُ أحبُّ إلىَّ من قدْره صلاةً، لعلَّ أحَدَهُمْ يَسْمَعُ الكلِمَةَ فينتفِعُ بها السَّنَةَ أو مَا بَقى مِنْ عُمُرِه.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكرِ وفضلِهَا، فرغَّبَ فيهَا وقَالَ رحمه الله: وأىُّ شىء أحسنُ من أن يجتمعَ الناسُ فيذكُرونَ اللهَ عزّ وجلّ؟ ويُعدِّدُونَ نعمَه عليهمْ، كما قالتِ الأنصارُ.

وروينا عن علىٍّ كرم الله وجهه: ما يَسُرنى أن الله تعالى أماتنى طِفْلاً وأدخلنى الدرجات العُلَى من الجَنَّةِ. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه أحْيانى حَتىَّ عَرَفْتُه.

وقال مالكُ بنُ دينار. خرجَ الناسُ مِنَ الدُّنيا ولَم يذُوقُوا طَيِّبَ شىءٍ فِيهَا.

قيل: وما هو؟ قال: المعرفةُ، ثم أنشأ يقول:

إنَّ عِرفانَ ذِى الجلالِ لَعزٌّ وضِياءٌ وبهجةٌ وسُرورُ
وَعلَى العارِفين أيضًا بَهَاءٌ وعليهم منَ المحبَّةِ نُورُ
فَهَنِيئًا لِمَن عَرَفَكَ إلهِى هُو ـ واللهِ ـ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

وقال يحيى بنُ معاذ الرازىُّ: فى الدنيا جَنَّةٌ مَنْ دَخلَها لم يشتقْ إلى شىء ولم يَسْتَوْحِشْ. قيلَ: وَمَا هِىَ؟ قال: معرفةُ الله تعالى. وقال آخرُ: لم يُخْطِئْكَ من العارف إحدى ثلاث خِلالٍ تَدُلُّ عليه: هيبةٌ، أو حلاوةٌ، أو أُنْسٌ.

وقال عَالِمنا أبُو مُحمدٍ سَهْلٌ رحمه الله: خرج العُلماءُ والزهَّادُ والعُبَّادُ وقلوبُهم مُقْفَلة، ولم يَفتحْ إلا قلوبَ الصدّيقين والشهداء، ثُمَّ تلا: ﴿**وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام:٥٩]. يعنى مُقْفلة عن مفاتِح المعرفةِ وشهادة عين التوحيد.

فمجالسُ الذكر هذه قَديمًا كانت لأهل المعرفة وأصحابِ معاملاتِ القلوبِ وعِلْمِ الباطِنِ، وهُمْ عُلَماءُ الآخرة وأهلُ الفقْه فى الدين. وقد قال الله تعالى وهُو أصدَقُ القائلين: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ**﴾ الآية [التوبة:١٢٢] ، فذكر الفقْهَ الذى هو من صفةِ القلبِ، والخوْفَ الذى هُوَ سببُ الفقه. وعِلْمُ العقل داخلٌ فى عِلْم الظّاهِر، والعلمُ باللهِ داخلٌ فى اليقين، كما رُوى فى الخبر: «اليقينُ الإيمانُ كُلُّه». وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣] فجعَلَ العقْلَ وَصْفًا مِنَ العلم. وقد أمر رسولُ الله ﷺ بتعليمِ اليقين كما أمر بطلبِ العلم، فكانَ هذا الحديثُ مَخْصُوصًا من ذاكَ، فيكونُ قوله ﷺ: «تعلّموا اليقينَ» للخُصُوص؛ لأنَّ اليقينَ مَقَامٌ فوقَ العلم، ويَكُونُ قولُه: «طلبُ العلمِ فَريضة» للعموم. وفى قوله: «تعلَّموا اليَقين» أمرٌ بِمُجَالسة الموقنينَ؛ لأن اليقينَ لا يَظْهَرُ بذاتِه وإنَّما يُوجَدُ عندَ الموقنينَ، فقد أمرهم ولَمْ يقل: تعلَّموا عِلمَ المعقول ولا عِلْمَ الفتاوى. وكانَ علماءُ الظاهرِ قديمًا يُسمَّوْن المفتينَ،

ومن ذلك قوله ﷺ: «استفت قلبَك وإنْ أفتاكَ المفتُون» فردّهُ إلى فقْه القلبِ وصرفَهُ عن فُتْيا المفتين، فلولا أنَّ القلبَ فَقيه لم يَجُزْ أن يَدُلَّه ﷺ على غير فقيه. ولولا أنّ عِلمَ الباطنِ حَاكِمٌ على الظاهرِ ما دَفَعه من عُلُومِ أهلِ الظَّاهرِ ـ وهُمْ علَماءُ الألْسنة ـ إلى علم الباطنِ وهو علمُ أهلِ القلوب وما رده إليه، ولا يجُوزُ أن يردَّه من فقِيهٍ إلى فَقِيهٍ دُونَه، كيف وقَدْ جَاءَ هَذَا الحديثُ بلفظَةٍ مؤكَّدة بالتكريرِ والمبالغة فقال: «استفتِ قلبَك وإنْ أفتَوْكَ وأفتَوْكَ»؟ وهذا مخصوصٌ لمن كان له قلبٌ، أو ألقى سمعَه، وشهِدَ قيامَ شَهِيدِه، وعُرِّيَ عَنْ شَهَواتِه ومَعْهودِه؛ لأنَّ الفقْهَ ليسَ مِنْ وَصْفِ اللِّسَانِ. ألم تسمَعْ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؟ [الأعراف:١٧٩]. فمَن كان له قلبٌ سميعٌ شهيدٌ فَقِهَ بِهِ الخطابَ فاستجابَ لِما سَمِعَ وأنابَ.

وذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢] وَصفين ظَهَرا عن الفقْه:

أحدُهُما: النِّذارةُ، وهو مقامٌ في الدعْوةِ إلى الله عزّ وجلّ، ولا يكونُ النَّذيرُ إلا مُخوِّفًا، ولا يكونُ المخَوِّفُ إلا خائفًا، والخائفُ عَالِم.

والثاني: الحذَرُ، وهوَ حالٌ منَ المعرفةِ بالله عزّ وجلّ، وهوَ الخشْيَةُ لهُ.

والفقهُ والفهمُ اسمانِ لمعنًى واحد. والعربُ تقول: «فَقِهتُ» بمعنى «فهِمتُ»، وقد فضَّل الله تعالى الفهمَ عنهُ على العلمِ والحكمة، ورفَعَ الأفهامَ على القضاءِ والأحكامِ، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فأفردَهُ بالفهم عنه، وهو الذى فضَّله به على حكْم أبيهِ في القضية، بعد أن أشركَهُما في الحكمِ والعلمِ.

وقد فَضَّلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضىَ اللهُ عنهما عُلماءَ الهدايةِ إلى الله سبحانه وتعالى الدالِّينَ عليه عزّ وجلّ، وسمَّاهُمُ العلماءَ، وحقّقهُم بالعلمِ في كلامٍ رُوِىَ لنا عنه مَنظومًا، وقد رُوِيناه أيضًا عن عَلِيٍّ كرّم الله وجْهَه ورضى عنه:

مـا الفَخْرُ إلا لأهلِ العلْمِ إنَّهمُ   على الهـدَى لمن استهْدَى أدِلاَّءُ

ووزنُ كلِّ امرئٍ مَا كـان يُحسِنُهُ والجاهِلُون لأهلِ العلْمِ أعْـداءُ

فمَن كان عالمًا يعلمُ معلومه اللهُ سبحانه وتعالى فمَن أفضلُ منه؟ وأىُّ قيمةٍ تُعْرَف له؟ إذ كلُّ علمٍ قيمتُه معلومةٌ، ووَزْنُ كلّ عالمٍ علمُه.

وقد قال عبد الواحد بنُ زيد إمامُ الزاهدين كَلامًا فى هذا المعنى، ويُفْرِد به العلماءَ باللهِ تعالى، ويرفَعُ طريقَهُمْ فوقَ كلِّ طريقٍ، أنشَدُونا عنه رحمه الله تعالى:

الطُّـرْقُ شَتَّى وطُرْقُ الحقِّ مُفـرَدَةٌ والسَّـالكون طَريقَ الحـقِّ أفرادُ
لا يُعرَفُونَ ولا تُسْلَكْ مقاصدُهُمْ فَهُمْ على مَهَلٍ يَمشُون قُصَّادُ
والنـاسُ فى غفلةٍ عمَّـا يُرادُ بهم فجُلُّهمْ عَنْ سَبِيلِ الحقِّ رُقَّادُ

وروينا عن ابن مسعودٍ رضى الله عنه أنه قال، لما ماتَ عمرُ رضى الله عنه: إنِّى لأحِبُّ هذا الرجلَ، قد ذهب بتسعةِ أعشَارِ العلم. فقيلَ له: تقولُ هذا وأصحابُ رسول الله ﷺ مُتَوافِرون؟ فقال: إنى لستُ أعنى العلمَ الذى تذهبونَ إليه، إنّما أعنى العلمَ باللهِ عزّ وجلّ.

وكان ابن مسعودٍ يقولُ: المتقونَ مُتوارون. وكذلك كان يقول: المتقُون سادةٌ والعلماءُ قادةٌ ومُجَالَستُهُمْ زِيادة. يعنى أنَّ المتقين سادةُ الناسِ، كما قال الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والعلماءُ قادةُ المتقِينَ، أى أئمَّتُهُمْ يقتفُونَ آثارَهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ففضَّلَ العلماءَ على المتقينَ وجعلَهمْ أئمَّةً لهم وصَارَ المتقونَ أصحابَهم، وأخبرَ بالمزيدِ فى مجَالستِهم؛ أى مجالستُهم زيادةٌ على مجالسةِ المتقينَ غيرِ العلماء؛ لأنَّ كلَّ عالمٍ تقىٌّ وليس كلُّ تقىٍّ عالمًا، كما رُوِىَ بمعناه: العلماءُ كثيرٌ والحكماءُ مِنَ العلماءِ قليلٌ، والصالحون كثيرٌ والصادقُونَ مِنَ الصَّالحينَ قليلٌ.

وسُئِلَ ابنُ المباركِ: مَنِ الناسُ؟ قال: العلماءُ. قيل: فمَنِ الملوكُ؟ قال: الزهّادُ.

قيل: فمن السَّفْلة؟ قال: مَنْ يأكلُ بدينه. وقال مرة فى رواية: الذين يَتلبَّسُون ويَطلبُونَ ويتعرَّضون للشهادات.

وقالَ فرقدٌ السَّنْجِيُّ للحَسَن رحمهما اللهُ تعالى فى شىء سألهُ عنهُ، فأجابهُ: يا أبا سعيد، إنَّ الفقهاءَ يخالفونك، فقال: ثَكلتْكَ أمُّك يا فرقدُ، وهل رأيتَ بعينيكَ فقهاء؟ إنَّما الفقيهُ الزاهدُ فى الدنيا، الراغبُ فى الآخرة، البصيرُ بدينه، المداومُ على عبادة ربِّه، الوَرِعُ الكافُّ عن أعْراضِ المسلمين، العفيفُ عن أموالهم، الناصحُ لجماعتهم.

جَمعْنا قوله هذا فى ثلاثِ رواياتٍ عنه مختلفةٍ، فهذه صفاتُ العالمِ باللهِ تعالى وهم العارِفُونَ.

وحُدِّثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلتُ لأبى: بلَغَنا أنكَ كنتَ تختلفُ إلى معروف الكَرْخى، أكان عنده حديثٌ؟ فقال: يا بنىَّ، كان عندهُ رأسُ الأمرِ: تَقْوَى اللهِ عزّ وجلّ.

وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه: بأىِّ شىءٍ ذُكِر هؤلاءِ الأئمَّةُ ووُصِفوا؟ فقال: ما هو إلا الصدْقُ الذى كان فيهم. قيلَ له: وما الصدْقُ؟ قال: هو الإخلاصُ. قيل له: فالإخلاصُ ما هو؟ قال: الزهد. قيل: وما الزهد؟ فأطرقَ ثم قال: سلوا الزهَّاد، سلوا بِشْرَ بنَ الحارث.

وقد حُدِّثْتُ عن بِشْرٍ فى منصورِ بنِ عمَّارٍ رحمهما اللهُ حكاياتٍ طريفةً، كَانَ منصورُ بنُ عمارٍ من الواعظين المذكَّرين ولم يكن العلماءُ فى وقته مثلَ بِشْرٍ وأحمد وأبى ثور يَعدُّونه عالمًا، كان عندهم من القُصَّاص، وكانت العامةُ تسمِّيه عَالمًا، فحُدِّثتُ عن نصرِ بن علىٍّ الجهْضَمِىِّ أنه مزحَ ذاتَ يوم مزاحًا أفرطَ فيه. فقيل له: تقول هذا وأنتَ من العلماء؟ فقال: ما رأيتُ أحَدًا من العلماء إلا وهو يمزحُ. فقيل له: قد رأيتَ بِشْرَ بن الحارث، فهل سمعتَه يمزَح؟ قال: نعم كنتُ جَالِسًا معه ذاتَ يومٍ فى بعضِ الدرُوب، فجاءَ منصُورُ بن عمَّارٍ يَعْدُو، فقال: يا أبا نصر، الأميرُ قد أمر بجمْعِ العلماء والصَّالحين، فترَى لى أنْ أختفى؟ فدفعه بشرٌ وقال:

تنحَّ عنَّا لا يمرُّ حملُ شوكٍ فيُلقيكَ علينا فنحترق. فهذا كان مَحلَّ القُصَّاصِ عندَ العلماءِ فيمَا سلف، حتَّى ذهبَ أهلُ هذا العلمِ، وجُهِلَتْ مجالسُ الذكْرِ وعلومُ اليقينِ والمعاملات، إلا مَنْ عَرفَ سيرةَ المتقدمين، وطريقةَ السالفينَ الذينَ كانوا يُفرِّقون بين مجالس الذكْرِ وبين القُصَّاص، ويُميِّزون بين العلماء وبين المتكلِّمين، وبينَ علمِ اللِّسَانِ وفقه القلْبِ، وبينَ علمِ اليقينِ وعلمِ العقْلِ؛ لأنَّ الفرقَ بين العالِم والقاصِّ: أنَّ العالم يسكُتُ حتَّى يُسألَ، فإذا سُئلَ أجابَ فيما يعلمُ بما هيأ الله تعالى له وكَشفَ، وينطقُ فيما أجراه اللهُ عزّ وجلّ عليه وعَرَفَ، فإنْ كان الصمتُ أفضلَ آثرَ السكوتَ لعلمه بالأفضل، فإن لم يرَ أهلَهُ تربَّصَ حتّى يضعَه في أهلِه، [لئلا يُجْهَل][1]، وأهلُه مَنْ عَرفَه، وكان له نصيبٌ من مشاهدته ووَجْدِه.

وقال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. ففي ذلك معنيان:

أحدُهما: أنّ أهل الذكْرِ همُ العلماءُ بالله تعالى، لقوله: ﴿إِنْ كُنتم لا تَعْلمُونَ﴾ فلا يجوز أن يقول: «سلوا من لا يَعلمُ» وهُمْ جاهلونَ فيزدادُون جَهْلاً.

والمعنى الثاني: يدُلُّ على أنَّ العلماءَ سُكوتٌ حتَّى يُسْألوا، فإذا سُئلوا وَجَبَ عليهم أن يجيبوا، لقوله تعالى لمن لا يعلمُ: ﴿فاسْئَلُوا﴾. فدلَّ أنَّ مجالسَ الذكْرِ هي مجالسُ العلماءِ التي وردتِ الأخبَارُ بفضَائلهَا. وفي تدبُّره أنَّ أهلَ الذِّكْرِ هؤلاء المسؤولون هم الذين وصَّلَ لهم القول لعلَّهُم يتذكَّرونَ. فلمَّا وصَّلَ لهمُ المفصَّلَ تذكَّروا عمّا وعد تعالى، فلما تذكّروا علمُوا، فعندها أمَرَ أن يُسألوا. ولذلك رُوينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للجاهل أن يستقرَّ على جَهْلِه، ولا ينبغي للعالِم أن يسكتَ على علمِه».

وكذلك قال رسولُ الله ﷺ في الخبر الذي رُويناه من طريقِ أهل البيت: «العلم خزائنُ مفتاحُها السؤالُ، فاسألوا فإنَّه يؤجرُ فيه أربعةُ: السائلُ، والعالمُ،

(١) زيادة من (ك).

والمستمعُ، والمحبُّ لهم».

وكان ابن مسعودٍ رضى الله عنه يقولُ: إنَّ من يُفْتى الناسَ فى كلِّ ما يستفتُونه لمجنونٌ.

وقال الأعمش: مِنَ الكلام كلامٌ جوابهُ السكوتُ. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: حسنُ سؤالِ الصادقينَ مفتاحُ قلوبِ العارفينَ.

فأما القاصُّ فهو الذى يبتدئُ فيقُصّ الأخبارَ ويذكُرُ القصَصَ والآثارَ، ولذلك سُمِّى قاصًا أى يتبعُ قصَّةَ مَنْ سلفَ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١] أى: تتبَّعى أثرَ موسَى تعرفى قصَّته وأخبرينى خبرَه. وقال مالكُ بنُ أنس رحمه اللهُ تعالى: من إذالَة العلمِ أن يُنطَقَ به قبلَ أن يُسْألَ عنه. وقال مرةً: مِنْ إذَالة العلمِ أن يجيبَ عن كلِّ ما يُسألُ عنهُ. أى: من إهانَته ووَضْعِه. يُقال: أشلَّ هذا، وأذلَّ هذا؛ أى ارفَعْ وضَعْ.

ويقال: إذا تُكُلِّمَ بالعلم قبلَ أن يُسألَ عنهُ ذهبَ ثلثا نوره. وقد قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ وغيره: سكوتُ العالِم أشدُّ على الشيطان من كلامه؛ لأنه يَسْكُتُ بحلمٍ وينَطِقُ بعلمٍ، فيقول الشيطان: انظروا إلى هذا سكوتُه أشدُّ علىَّ من كلامه. ولذلكَ يقال: الصمتُ زينُ العالم وسترُ الجاهل.

وعن القاسمِ بن محمدٍ أنهُ قال: من إكرامِ المرءِ نفْسَه أن يَسْكُتَ على ما عنده حتى يُسْألَ عنه.

وكذلك هُو لعمرِى؛ لأنه إذا تكلم بعدَ السؤالِ فهُو صاحبُها، وربَّما كان فَرْضًا وليس الحاجةُ إلاّ القيامَ بالفرضِ منَ الشَّهوات، ولقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، فأوجبَ أن يُجيبُوا من حيثُ أمرَ أنْ يُسْألوا. وقال ﷺ: «مَنْ سُئل عن علمٍ فكتَمَهُ أُلْجِمَ بلجامٍ مِنْ نارٍ» فتوعَّدَ عليه بالعقابِ. وقد يكُون الابتداءُ بالشىءِ من خَفَايَا الشهواتِ، والشهواتُ من الدنيا.

ووُصِفَ رجلُ لمالكِ بنِ أنسٍ فقال: لا بأسَ به لولا أنَّه يتكلمُ بالشىء قبلَ أن يُسْأل عنه. وقال مرة: لا بأسَ به إلا أنه يتكلمُ بكلام شهرٍ فى يومٍ. وقد قيل فى

معنى ما ذُكِرَ: إن الكلام من الشهوات. قال: هو الذى يبتدئ به قبل أن يُسأل عنه.

ووصف بعضُهُم الأبدالَ فقالَ فى وَصْفِهِمْ: أكلُهم فاقةٌ، وكلامُهُم ضرورَةٌ، وكانُوا لا يتكلمُونَ حتى يُسْألوا عن شىء فيُجيبوا.

ومن لم يتكلَّمْ حتَّى يُسْألَ فليسَ يُعَدُّ لاغيًا ولا متكلِّمًا فيما لا يَعْنيه؛ لأنّ الجوابَ بعدَ السؤالِ كالفرْضِ بمنزلةِ ردِّ السلامِ، وكما قال ابنُ عباس رضى الله عنهما: إنِّى لأرى ردَّ الجوابِ واجبًا كردِّ السلامِ. وقد قال أبو موسَى وابنُ مسعودٍ رضى الله عنهما: من سُئل عن علمٍ فليقلْ به، ومن لا فليسكُتْ وإلا كُتبَ من المتكلِّفين ومَرَقَ من الدِّين. ورويناهُ عن ابنِ عباسٍ أيضًا.

وقد كانوا يَخافونَ من دُخُولِ التكلفِ عليهِمْ فى كلِّ شىءٍ، ويعدُّ بعضُهم الابتداء بالكلام منْ غيرِ حاجة تدعُو إليه أو قبلَ سؤالٍ عنهُ من غير أن يرَى له مَوْضِعًا أو يجد له أهلاً؛ يعدُّونَهُ من التكلُّف.

وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تتكلَّمْ فيمَا لا يَعْنيكَ فإنه أفضَلُ، وَلا آمنُ عليك الخطأ، ولا تتكلَّم فيما يَعْنيكَ حتَّى ترَىَ له مَوْضِعًا، فربَّ متكلِّمٍ فيما يعنيه قد وَضَعه فى غير موضعِه فعَنَتَ.

ورُوى فى حديث الأنْصارىّ الذى قالتْ لهُ أُمُّهُ عندَ موته: «هنيئًا لك الجنَّةُ، جاهدتَ مع رسول الله ﷺ وقُتلت فى سبيلِ الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنَّة، لعلَّه كان يتكلمُ فيما لا يَعْنيه ويَبخَلُ بمَا لا يُغْنيه».

ومَنْ أظهَرَ عِلْمًا منْ غيرِ أنْ يُسأل عَنْه ونَشرَهُ فى غيرِ أهله فأُنكِر عليه سُئل عنه، وكان عليه فيه مُطالبة؛ لأنه قد تكلَّف إظهاره. فإن كان سُئل عنه، ثم تكلَّم فيه لم يكُنْ عليه فيه مطالبةٌ فيمَنْ أنكَر؛ لأنهُ خَرَجَ جوابًا على سؤالٍ. ومِنْ هذا كَان السَّلفُ المتكلمون فى هذا العلم يَسْكُتون حتَّى يُسألوا عنه.

وكان أبو محمد يقول: العالم يقعُدُ فيسكتُ، ويرفعُ قلبَهُ إلى مَوْلاهُ، فيفتقرُ إليه فى حُسْنِ توفيقِه، ويسألُه أنْ يُلْهِمَهُ الصَّوابَ. فأى شىءٍ سُئِلَ عنهُ تكلَّم بِمَا

فَتَحَ لهُ مولاه. فجَعَلَ العالِمَ فى حالة سكوتِهِ ونظره إلى سيِّدِهِ محتاجًا إلى التوكُّل، ومنتظرًا للوكيلِ فى أىَ شىءٍ يُجْرِيه.

وقال بعضُهُمْ: إنَّما العالِمُ الذى إذا سُئِلَ عن المسألةِ كأنَّما تقلّع ضِرْسُه.

وقال رَقَبة بنُ مَصْقلة وغيرُه: ليسَ العالِمُ الذى يَجْمعُ الناسَ فيقصّ عليهم، إنَّما العالِمُ الذى إذا سُئِل عَنِ العلمِ كأنما يُسْعَطُ الخردل. وقد روينا أنّ رَقْبة بن مصقلة قال للأعمش، وقد كان محمدُ بنُ سوقة يسألهُ عن الحديث، فيُعرضُ عنه ولا يُجيبه [، فذكر ذلك له][1]. فالتفت الأعمشُ إلى رَقْبة فقال له: هو إذًا أحمقُ مثلُكَ، أنْ كان يدَعُ فائدتَه لسوءِ خُلقى. فقال محمد بن سوقة: ويْحَك إنَّما أجعلُه بمنزلة الدواءِ أصبرُ على مرارته لما أرجُو مِنْ منفعته.

وقد روينا عَنْ علىٍّ وابن مسعود رضى الله عنهما: أنه مرَّ برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ فقال: هذا يقولُ اعرفُونى. وحدثنى بعضُ علماء خُراسَانَ عن شيخٍ له عن أبى حفصٍ النيسابورىّ الكبير، وكان هذا هُناك نَظيرَ الجُنيد ههنا، أنه قال: إنَّما العالِمُ الذى يُسْأل عن مسألةٍ فى الدينِ فيغتمٌّ، حتَّى لو جُرِحَ لم يخرجْ منه دمٌ منَ الفزعِ، يخافُ أن يُسألَ فى الآخرة عمَّا سُئل عنه فى الدنيا، ويفزعُ أن لا يتخلَّصَ من السؤال، إلاَّ أن يَرَى أنَّه قد افْتُرِضَ عليه الجواب لفقدِ العلماءِ. ومن ههنا كان ابنُ عمر رضى الله عنهما يَسْكُتُ عن تسع مسائلَ ويجيب عن واحدة، ويقول: تريدون أن تَجْعلونا جِسْرًا تعبرونَ عليه فى جهنَّمَ، تقولون: أفتانا ابنُ عمرَ بهذا.

وكان إبراهيمُ التَّيمىُّ إذا سُئِل عن مسألة يبكى ويقول: لم تجدْ مَنْ تسألُه غيرِى، أوَ احتجتُم إلىّ؟ قال: وجَهدنا بإبراهيم النَّخَعىِّ أن نُسْندَه إلى سارية فأبى. وكان إذا سُئل عن شىءٍ بكى، وقال: قد احتاجَ الناسُ إلىّ. وقد كانَ سفيانُ بنُ عُيينة تفرَّدَ فِى زمانِه بعلومٍ انفردَ بها فى وقته، وكانَ مع ذلك يَضرِبُ المثل لنفسه ويقول:

خَلَتِ الدِّيَارُ فسُدْتَ غيرَ مُسَوَّدِ ... ومن الشَّقاءِ تفرُّدِى بالسُّؤدُدِ

---

(١) أضفناها من عندنا ليستقيم الكلام. و«مصقلة» وردت قبل ذلك بالسين، انظر ص ١١٣ والهامش رقم (٤) منها.

وأمّا أبو العالية الرياحيّ فكانَ يتكلّمُ على الاثنين والثلاثة، فإذا صاروا أربعةً قامَ. وكذلك كان إبراهيمُ، والثوريُّ، وابنُ أدْهَمَ رحمهم الله تعالى، يتكلّمون عَلَى النفَرِ، فإذا كَثُرَ الناس انصرفُوا. وكان أبو محمدٍ سهْل رحمه الله يجلسُ إليه خمسةٌ أو ستّةٌ إلى العَشْرة. وقالَ لى بعضُ الشُّيوخِ: كان الجنيدُ رحمه الله يتكلّمُ على بضعَ عشْرَةَ. قال: وما تم أهل الجلْسَة عِشْرُون.

وقد حُدِّثتُ عن أبى الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله أنَّ قوْمًا اجْتَمَعُوا فى مَسْجِده، فأرسلُوا إليه بَعْضَهُمْ أن إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءكَ والسَّماعَ منكَ، فإنْ رأيت أن تخرُجَ إليهم فذَاكَ. وكانَ المسجدُ علَى بَابِ بَيْته، ولم يكُنْ يُدْخَلُ عليه فى منزله. فقَالَ للرسُولِ بعد أن خرج إليهم: من هُمْ؟ فقال: فلانٌ وفلانٌ وسمّاهُمْ. فقال: ليس هؤلاء من أصحَابى، هؤلاء أصحابُ المجلس، ولم يخرج.

كأنَّه رآهم عُمومًا لا يصلُحُونَ لتخْصِيصِ علْمه فلَمْ يُذْهِبْ وقته لوقتهم.

وكذلكَ العالمُ خلوته تَعزُّ عليه، فإن وافقَ خصوصَ أصحابِ آثرهُمْ عَلَى خلوته، فكانَ ذلك مَزيدًا لهم، وإن هُو لم يُوَافِقْ لم يُؤثرْ على خَلْوته غيره، فيكونُ مناخًا للبطَّالين. وقد كان ابنُ سالمٍ أبو الحسن يخرجُ إلى إخوانه ممَّن يراهُ مَوْضِعًا لعلمه، فَيجْلِسُ إليهِمْ ويُذاكِرُهُمْ، وربَّما أدخلهم إليه نهارًا أو ليلاً.

ولَعَمْرى إنَّ المذاكرةَ تكونُ بين النظراء، والمحادثةَ تكونُ معَ الإخوانِ، والجلوسَ للعِلم يكونُ للأصحابِ، والجوابُ عن السؤالِ نصيبُ العُموم.

وكان عند أهل هذا العلم أنَّ علْمَهم مَخْصوصٌ لا يصلُح إلا للخُصُوص، والخصُوصُ قليلٌ. ولم يكونوا يَنْطقُونَ به إلا عندَ أهله، ويَرَوْنَ أنَّ ذلك من حقِّه، وأنَّه واجبٌ عليهم، كما وصفَهُمْ علىٌّ كرّم الله وجهه فى قوله: حتَّى يُودِعُوه أمثالهم ويزرَعُوه فى قلوبِ أشكالهمْ.

وكذلك جاءت الآثارُ بذلك عنْ نَبِيِّنَا ﷺ، وعن عيسَى عليه السلام: «لا تَضعُوا الحِكْمَةَ عِندَ غيرِ أهلِهَا فتظلِمُوهَا، ولا تمنَعُوهَا أهلَها فتظلِمُوهُمْ. كونوا

كالطبيبِ الرفيقِ الذى يضعُ الدَّواء فى موضع الداء». وفى لفظ آخرَ: «مَنْ وضعَ الحِكْمةَ فى غيرِ أهلِها جَهِل، ومن منَعها أهلَها ظلَم. إنَّ للحكمةِ حقًّا، وإنَّ لها أهلاً، وإنَّ لأهلها حقًّا، فأعْطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه».

وفى حديثِ عيسى صلاةُ الله وسلامُه عليه: «لا تُعلِّقُوا الجوهرَ فى أعناقِ الخنازيرِ، فإنَّ الحِكمة خيرٌ من الجوهرِ، ومَنْ كرهها فهو شرٌّ منَ الخنزير».

وكان بعضُ هذهِ الطائفةِ يقول: نصفُ هذا العلمِ سُكوتٌ، ونصفه تدْرِى أينَ تَضعُه.

وقد قال بعضُ العارفين: مَن كلَّمَ الناسَ بمبلغِ علْمه وبمقْدَارِ عقله، ولم يخاطِبْهُمْ بقدرِ حدودِهِمْ، فقد بَخَسَهُمْ حقَّهُمْ، ولم يَقُمْ بحقِّ الله عزَّ وجلَّ فيهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: اغرِفْ لكلِّ واحدٍ من نهرِه، واسقِه بكأسِه.

ونحنُ نقول بمعناهُ: كلْ لكلِّ عبدٍ بمعيارِ عقله، وزِنْ له بميزانِ علمِه، حتَّى تَسْلمَ منهُ وينتفعَ بِك، وإلا وقَعَ الإنكَارُ لتفاوتِ المعْيَارِ.

وحدثنى بعضُ أشياخِنا من هذه الطائفةِ عن أبى عمران، وهو المزينُ الكبيرُ المكِّى، قال: سمعته يقولُ لأبى بكرٍ الكتانىّ، وكان سَمْحًا بهذا العلمِ بذُولاً له لجميعِ الفقراءِ، فجعلَ أبو عمران يعاتبهُ وينهاهُ عن بَذْلِه لَهُ وكثرةِ كلامِه فيه، إلى أنْ قالَ: أنا منذُ عشرينَ سنة أسأل اللهَ تعالى أن يُنْسِيَنى هذا العلمَ. قال: ولِمَ؟ قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنامِ فسمعتُه يقول: إن لكلِّ شىءٍ عندَ الله تعالى حُرْمةً، ومن أعظمِ الأشياءِ حرمةُ الحكمةِ، فمن وضعَها فى غيرِ أهلِهَا طالَبه اللهُ تعالى بحقِّها، ومَنْ طالبه خَصَمَه.

وقد كان بعضُ السلف يقول: إذا استَنَد الرجلُ إلى ساريةٍ أو أحبَّ أنْ يُسألَ فلاَ تجلسْ إليه، ولا ينبغِى أن يُسألَ.

ولم يُرَ فى مجالسِ أهلِ هذا العلمِ فيما سلفَ ثلاثون رَجُلاً ولا عشْرُون إلا نَادرًا غيرَ لزامٍ ولا دَوامٍ، إنَّمَا كَانُوا منَ الأربعة إلى العشرة وبضْعة عَشَرَ. وقد كان يجتمعُ فى مَجَالسِ القصَّاصِ والمذكِّرينَ والواعظِين مِئُون مِن عَهْدِ الحسنِ إلى وقتنا

هذا. فهذا أيضًا من الفرقِ بينهما أنَّ العلْمَ مخصوصٌ لِقَليلٍ وأن القَصَصَ عامٌّ لكثيرٍ.

وقال بعضُ عُلَمائنَا: كان فى البصرةِ مائةٌ وعِشْرُونَ مُتكلِّمًا فى الذكْرِ والوعْظ، ولم يكُنْ مَنْ يَتكلَّمُ فى علمِ المعرفة واليقين والمقاماتِ والأحوالِ إلا ستَّةٌ منهم: أبو محمدٍ سهلٌ، والصُّبيحِى، وعبدُ الرحيم.

وقد قيل: من لم ينتفعْ بسكوتِ العالمِ لم ينتفعْ بكلامه. أى ينبغِى أن يتأدّبَ بصمتِه وخشوعِه وورعِه ويقتدِى بيقينِه فى ذلك، كما يتأدبُ بنطقِه ويقتدى بكلامه.

على أنَّهم كَانوا يقولون: علمُ الظاهرِ من علمِ المُلْكِ، وعلمُ الباطنِ من علم الملكُوتِ، يعنونَ أن ذلك من علمِ الدنيا؛ لأنه يُحتاجُ إليه فى أمورِ الدنيا، وهذا من علمِ الآخرةِ؛ لأنه مِنْ زَادِهَا. وهذا كَما قالوه؛ لأنَّ اللسَانَ ظاهرٌ فهُوَ مِنَ الملكِ وهو خزانة العلمِ الظاهرِ، والقلبُ خزانةُ الملكوتِ وهُو بابُ العلمِ الباطن. فقد صارَ فضلُ العلمِ الباطنِ على الظاهر كفضلِ الملكوتِ على الملكِ، وهو الملكُ الباطنُ الخفىُّ، وكفضل القلبِ على اللسانِ، وهو الظاهرُ الجلىُّ.

وقد كان بشرُ بن الحارث رحمه الله يقول: حدَّثنا وأخبرَنا بابٌ من أبوابِ الدُّنيَا. وقال مرة: الحديثُ ليس من زاد الآخرة. وحدَّثنا بعض أشياخنا عن بعضِ أصحابِه قال: دفَنَّا[1] له بضعةَ عَشَرَ ما بين قِمَطْرٍ وقَوْصَرَّة كُتُبًا، لم يحدِّثْ منها بشىءٍ، إلا ما سُمعَ منه نادرًا فى الفرد. وكان رحمه الله تعالى يقول: إنِّى أشْتَهى أن أحدِّث، ولو ذهبَ عَنِّى شهوةُ الحديث لحدّثتُ. ثم قال: أنا أجاهدُ نفْسى منذ أربعينَ سنةً. وقال: إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ حدّثنا وأخبرنا، فإنّما يقول: أوسعوا لى. وكانَ زاهدًا عالمًا. وقال هو وغيره: إذا اشتهيتَ أن تحدّثَ فلا تُحدِّثْ، وإن لم تشتهِ أن تحدِّث فحدِّثْ.

(١) فى (ك): «أنه دُفن». والقمطر: ما تُصان فيه الكتب، والجمع: قماطر. والقوصرة: وعاء للتمر من قَصَب.

وقد كانت رابعةُ العدويةُ رحمها الله تعالى قبلَه تقول للثورى رضى الله عنه: نِعْم الرجلُ سفيانُ، لولا أنّه يحب الحَديث. وكانت تقولُ: فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِنْ فتنةِ المالِ والولدِ. وقالت مرةً: لولا أنَّهُ يحبُّ الدُّنيَا. يعنى اجتماعُ الناسِ حولَه للحديثِ.

وكان أبو سُلَيمان الدَّارانى رحمه الله تعالى يقولُ: مَنْ تزوّجَ، أو كتبَ الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد ركنَ إلى الدنيا. وقالَ بعضُ هذه الطائفة: كلُّ مَنْ أدرك العلومَ غيرَ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ فقد استدركَ، والذى أدرك العلم بالله فقد تُدُورك. ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم:٤٩] أى: لولا أن تُدورك بعلمِ المعرفةِ لَطُرِح فى بُعْدِ الهَوى. والعراء: البعد. وعلمُ المعقولِ بُعْدٌ إلى جنب عِلْم اليقين.

وقال أيضًا فى فهْم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء:٧٤] أى: ثبتّناك بالمعرفةِ، لقد كدت تسكُن إلى عُلومِ العقْلِ.

وقال سهل بنُ عبدِ اللهِ رحمه الله تعالى فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء.٨٠] قال: لسَانًا ينطِقُ عنكَ لا عَن سِواكَ.

وفضلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ والعلمِ بالإيمان وعلمِ اليقينِ على العلمِ بالأحكَامِ والقضايا كفضلِ المشاهَدة على الخبر. وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». وفى لفظ آخر: «ليس المخبرُ كالمعاينِ».

وقد روى عياضُ بنُ غنم عن النبى ﷺ فى تفسيرِ قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر.٥]: كرأى العينِ.

وفى هذا الخبر: إنَّ من خيار أمتى قومًا يضحكُون جَهْرًا من سَعَة رحمة ربِّهم، ويبكُونَ سرًا مِنْ خوف عذابه؛ أقدامُهم فى الأرض، وقلوبُهم فى السَّماء، أرواحُهم فى الدنْيا، وعقولُهمْ فى الآخرَة، يمشُونَ بالسَّكينة، ويتقربونَ بالوَسيلة.

فالفُتْيا هى الإخبارُ، والاستفتاء هو الاستخبارُ. ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [الصافات.١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء:١٢٧] أى: يستخبرُونك. فعلمُ

الخبرِ قد يدخلُه الظنُّ والشكُّ، والمشاهدةُ ترفعُ الظَّنَّ وتزيلُ الشَّكَّ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١] فأثبت الرؤيةَ للقَلْبِ بالعين، فرؤيةُ القلبِ هو اليقينُ، وذُو القلب هو الموقنُ.

وقال النبى ﷺ: «كفى باليقينِ غِنًى». ففى علمِ اليقينِ غُنْيَةٌ عَنْ جميعِ العلومِ؛ لأنَّه حقيقةُ العلمِ وخالصُهُ، وليس فى جَميعِ العلومِ غنًى عن علمِ اليقينِ؛ لأنَّ الفقر بالشّكِّ. والحاجَةُ إلى اليقينِ فى علمِ التوحيدِ وعلمِ الإيمانِ أشدُّ من الفقر بالحاجة إلى علوم الفُتْيا وغيرِها. فلذلك صارَ الغِنَى باليقينِ أعظمَ من الاستغناءِ بسائر العلوم.

ففى هذا العلمِ مَثَلٌ من فاتحة الكتابِ إلى سائر القرآن، كما رُوِى عن النبى ﷺ: «فاتحةُ الكتابِ تُجْزِى من كلِّ القرآنِ، وليسَ القرآنُ كلُّه يُجزِى من فاتحة الكتاب». فكذلك مَثَلُ العلمِ باللهِ عزّ وجلّ إلى العلمِ بِمَا سِوَاه. ففى العلمِ باللهِ تعالى عِوَضٌ من كلِّ العلومِ، وليسَ فى سائر العلومِ عوضٌ من العلمِ باللهِ عزّ وجلّ، من حيثُ كانَ فى اللهِ تعالى عوضٌ به عَنْ كلِّ ما سواه.

وكلُّ عِلْمٍ موقوفٌ على معلومه، فعلمُ اليقينِ معلومُه اللهُ تعالى، ففضْلُه كفَضْلِ اللهِ تعالى على ما سواه. وقد قال بعضُ الحكماءِ فى معنى ما ذكرناه: مَنْ عَرَفَ اللهَ تعالى فمَاذَا جَهِلَ؟ ومن جَهِلَ اللهَ تعالىَ فمَاذَا عَرَفَ؟

فالعلماءُ باللهِ تعالى هم ورثةُ الأنبياءِ؛ لأنَّهُمْ وَرِثُوا عنهم الدلالةَ على اللهِ تعالى، والدعوةَ إليه والاقتداءَ بهم فى أعمالِ القُلُوبِ. وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَولاً مِّمَّنْ دَعَا إلى الله وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:٣٣]. وكما قال تعالى: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ﴾ [النحل:١٢٥]. وكما أمره بالدعاء وأشركَ معه أتباعَهُ فى الدعاء إلى الله تعالى لا فى البصيرة فقال تعالى: ﴿قُلْ هذه سَبِيلى أَدْعُواْ إلى الله عَلَى بَصِيرَةَ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ويُحشرونَ يوم القيامة مع الأنبياءِ كما قال تعالى: ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء ٦٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بالنَّبِيِّين وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩]. ثم فسَّرَهُ فقال تعالى: ﴿بما

استُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وكانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد روينا معناهُ عَنْ معاذِ بن جبلٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ أقربَ الناس مِنْ درجَةِ النبوّةِ أهلُ العلمِ وأهلُ الجهاد».

أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءتْ به الأنبياءُ. وأما أهلُ الجهادِ فجاهدُوا بأسيافِهِمْ على ما جاءتْ به الرسلُ. وعلمَاءُ الدنيا يُحْشَرُون مع الولاة والسَّلاطِينِ.

وقد قال بعضُ السلف: العلماءُ يُحشرونَ فى زمرةِ الأنبياءِ، والقضاةُ يُحشرون فى زمرةِ السلاطينِ. وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى من علماء أهل الدنيا، ومن سادة القضاة وعُقلائهمْ، وكان مؤاخيًا لأبى الحسنِ بن أبى الوردِ، وكانَ هَذا من أهلِ المعرفة(١)، فلمَّا وَلّى إسماعيلُ القضاء هَجرهُ ابنُ أبى الورد، ثم إنَّه اضطرَّ إلى أنْ دخلَ عليه فى شهادةٍ، فضربَ ابنُ أبى الوردِ يدَه على كَتفِ إسماعيل القاضى، وقال: يا إسماعيل، علمٌ أجلسَكَ هذا المجلسَ لقد كان الجهْلُ خيرًا منه. فوضعَ إسماعيلُ رداءَهُ على وجهِهِ وجعَلَ يبكى حتَّى بلَّه.

وعلماءُ الظاهرِ هم زينةُ الأرضِ والمُلك، وعلماءُ الباطن زينةُ السَّماء والملكوتِ. وعلماءُ الظاهر أهلُ الخبرِ واللسانِ، وعلماءُ الباطنِ أربابُ القلوبِ والعيانِ(٢).

وقال بعضُ العلماء: لما خلق الله تعالى اللسان قال: هذا معقلُ خبرِى، إن صدَّقنِى نجّيتُهُ. ولَمَّا خلق الله تعالى القلْبَ قال: هذا موضع نظرى، إن صفا لى صافيته. وقال بعض الخلف: الجاهل ينجُو بالعلمِ، والعالمُ ينجُو بالحجةِ، والعارفُ ينجُو بالجاه. وقال بعضُ العارفينَ: علْمُ الظاهرِ حُكمٌ، وعلمُ الباطنِ حاكم، والحكْمُ موقوفٌ حتَّى يجىء الحاكم يحكمُ فيه.

وقد كان علماءُ الظاهرِ إذا أشْكَلَ عليهمُ العلمُ فى مَسألة لاختلاف الأدلة سألوا أهلَ العلمِ باللهِ؛ لأنهُمْ أقربُ إلى التوفيقِ عندهُمْ، وأبعدُ من الهوَى والمعصيةِ. منهم الشّافعىُّ رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهتْ عليه المسألة؛ لاختلافِ أقوالِ العلماء فيها، وتكافُؤ الاستدلالِ عليها، رجعَ إلى علماء أهل المعرفة فسألهم.

(١) فى (ك): «الباطن».

(٢) وهذا يعنى أنه لا غنى للحياة عن الاثنين معًا، فكلاهما مطلوب.

قال: وكان يجلسُ بين يدَى «شيبانَ الراعى» كما يجلسُ الصبىُّ بين يدى الْمُكْتِب[1] ويسأله: كيف يُفعل فى كذا؟ وكيف يُصنع فى كذا؟ فيقال له: مثلُك يا أبا عبد الله فى علمِك وفقهك تسأل هذا البدوىَّ؟! فيقول: إنَّ هذا وُفِّق لما عَلمناهُ.

وكان الشافعىُّ رحمه الله قد اعتلَّ علةً شديدةً، فكان يقولُ: اللهمَّ إن كَانَ فى هذَا رِضَاك فزِدْنِى منه. فكتبَ إليه المعافرىُّ من سوادِ مصرَ: يا أبا عبد الله لستُ وإيَّاكَ من رجالِ البلاءِ فنسألُ الرِّضا، الأولى بنا أن نسألَ الرِّفْقَ والعافيةَ. فرجَع الشافعى رحمه الله عن قوله هذا، وقال: أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه. فكان بعد ذلك رحمه الله يقول: اللهم اجعلْ خَيْرتِى فيما أُحِبُّ.

وقد كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفانِ إلى معروف ابن فيروز الكرخىِّ رحمه الله، ولم يكن يُحسنُ من العلم والسُّنَنِ ما يحسنانِه، فكانَا يَسألانه.

وقد رُوى فى الخبر: «قيل: يا رسولَ الله، كيفَ نصنع إذا جَاءَنَا أمرٌ لم نَجدْه فى كتاب الله تعالى ولا فى سُنَّة رسولِ الله ﷺ؟ فقال: سَلُوا الصالحينَ واجعَلُوه شُورى بينهم، ولا تَقْضُوا فيه أمرًا دُونهم».

وفى حديث معاذٍ رضى الله عنه: «فإن جاءك ما ليسَ فى كتَاب الله تعالى ولا سنة رسول الله؟ قال: أقضى فيه بما قَضَى الصالحونَ. فقال: الحمدُ لله الذى وَفَّقَ رسولَ رسوله». وفى بعضها: «أجتهدُ رأيى».

وحدثُونا عن الجُنيدِ قال: كنتُ إذَا قُمْتُ منْ عند سَرِىٍّ السَّقطى قالَ لى: إذا فارقتَنى مَنْ تجالس؟ فقلتُ: الحارثُ المحاسبىُّ، فقالَ: نعم خُذ منْ علمه وأدبه، ودَعْ عنكَ تشقيقه للكلامِ وردَّه على المتكلِّمينَ. قال: فلمّا ولَّيتُ سمعتُه يقولُ: جعلك اللهُ صاحبَ حديثٍ صُوفيًا، ولا جَعلك صُوفيًا صاحبَ حديثٍ. يعنى. أنكَ إذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر، ومعرفةِ الأصولِ والسنن، ثم تزهّدتَ

(١) المُكْتِب: المُعلِّم.

وتعبّدتَ، تقدَّمتَ فى علمِ الصوفية، وكنتَ صُوفيًا عارفًا. وإذا ابتدأتَ بالتعبد والتّقوَى والحالِ، شُغلتَ به عن العلم والسنن، فخرجتَ إمَّا: شاطحًا أو غالطًا؛ لجَهْلك بالأصول والسنن، فأحسنُ أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهرِ وكُتُبِ الحديث؛ لأنَّه هُوَ الأصلُ الذى تُفرَّعُ عليه العبادةُ والعلمُ، وأنتَ قد بُودِئتَ بالفرعِ قبلَ الأصْلِ.

وقد قيلَ: إنَّما حُرِمُوا الوُصولَ بتضييع الأُصُول. هى كُتبُ الحديث ومعرفةُ الآثارِ والسنن. فإذا أنتَ رددْتَ إلى الأصْل، فقد انحططتَ عن مرتبةِ الناقدين، ونزلت من دَرَجةِ العارفين، وفاتَك مزيدُ الإيمان واليقين.

وقال سفيانُ الثورىُّ رضى الله عنه: كان الناسُ إذا طَلَبوا العلمَ عَمِلُوا، فإذا عَملوا أخلصُوا، فإذا أخلصُوا هَربوا. وقال آخرُ: العالِمُ إذا هَربَ منَ الناس فاطلُبْهُ، وإذا طلبَ الناسَ فاهرُبْ منهُ، وقال أبو محمدٍ سهْل: العِلْمُ يهتفُ بالعَمَل، فإن أجابهَ وإلاَّ ارتَحَل.

وكان ذُو النون يَقُولُ: اجْلسْ إلى مَنْ تُكَلِّمُكَ صفَتُهُ، ولا تَجْلسْ إلى مَنْ يكلِّمُكَ لِسَانُه. وقد كان الحسَنُ قبلَهُ يقول: جالِسْ مَنْ تكلِّمُكَ أعمَالُه ولا تجالِسْ من يخاطبك مَقالُه.

وقد كان طائفة يَصْحَبُونَ كَثيرًا من أهل المعرفة؛ للتأدُّب بهمْ، والنظرِ إلى هَدْيِهمْ وأخلاقِهم، وإن لم يكونوا علماءَ؛ لأن التأديبَ يكونُ بالأفعال، والتعلُّم يكون بالمقال. ومن أبلغِ ما سمعتُ منهم فى هذا المعنى ما قالَ بعضُ الحكماء: وَعْظُ واحدٍ لألفٍ بفعلٍ أنجحُ فيهم وأوقعُ من وَعْظِ ألفٍ لواحدٍ بقَول.

وكانَ سهلٌ يقولُ: العِلْمُ كلُّه دُنيا، والآخرةُ منهُ العملُ به، والعملُ هباءٌ إلا الإخلاصُ. وقال مرة: الناس موتى إلا العلماء، والعلماءُ سكارَى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصين، والمخلصُ على وَجَلٍ حتَّى يُخْتَم له بِه.

ولم يكن العالم عند العلماءِ مَنْ كان عالمًا بعلمِ غيرِه ولا حافظًا لفقهِ سواه، هذا كان اسمُه: رَاويةً، ووَاعيًا، وحَاملاً، وناقلاً.

وقَدْ كان أبو حازم الزَّاهدُ يقولُ: ذَهَب العلماءُ وبَقِيتْ عُلومٌ في أوعية سُودٍ.

وقد كان الزهرىُّ يقولُ: كانَ فلان وعاءٌ للعلمِ، وحدَّثنِي فلانٌ وكانَ من أوْعِيةِ العلمِ، ولا يقولُ كانَ عالمًا.

وكذلك جاءَ الخبرُ: «رُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هُو أفقهُ منه».

وكانوا يقولون: «حمّاد الرّاوية» يعنون أنَّه كان رَاويًا. ودُخُول الهاءِ فى الاسمِ للمُبالغةِ في الوصفِ، كما يقال: علاَّمة ونسَّابة.

وإنما كان العالم عندَهم الغَنِىَّ بعِلْمِه لا بِعلْمِ غَيرِه. وكَانَ الفقيهُ فيهم هو الفقيهَ بفقه علمه وقلبه لا بحديثِ سِوَاهُ. كما جاءَ فى الأثر: «أىُّ الناسِ أغنى؟ قال: العالِم الغَنِىُّ بعلمِه، إنِ احتيجَ إليه نَفَع، وإلاَّ اكتَفَى عَن النَّاسِ بعلمه. لأنَّ كُلَّ عَالِمٍ بعلمِ غيرِه، فإنَّما صَارَ عَالمًا بمجمُوعِه، فمجموعُهُ هُمُ العلمَاءُ. وكلُّ فاضلٍ بَوصْفِ سِوَاه فموصوفُه هم الفضلاءُ. فإذَا تركَهُمْ وانفردَ سكتَ فلم يَرجِعْ إلى علمٍ لنفسه يختصُّ بِهِ، فصارَ فى الحقيقةِ موصوفًا بالجهل، واصفًا لطرائقِ أهل الفضل، مَوْسومًا بعلمِ السَّمعِ والنقلِ، فمَثَلُ العالمِ بعلمِ غيرِه مثَلُ الواصف لأحوالِ الصالحين، العارف بمقاماتِ الصدِّيقين، وَلا حالَ لَهُ وَلا مُقَامَ، فليسَ يعودُ عليه مِنْ وَصفِه إلا الحجَّةُ بالعلمِ والكلامِ. وسبق العارفونَ بالله فى الحجة بالأعمال والمقام. فمَثَلُهُ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممَّا تَصفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، وكقوله عز وجلّ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيه وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:٢٠]، [إذ لا حالَ له مما يَصِفُ ولا مقام][(١)] يرجعُ إلى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشَّبه عليه مما اختلفَ العلماءُ فيه، ولا يتحقّقُ بوَجْد منه يَجِدُهُ عَنْ حَالِ ألبسَهَا بوَجْدِه، وإنَّما هُوَ مُتواجِدٌ بوَجْدِ غَيْرِه، فغيرُه هُو الوَاجِدُ وشاهِدٌ على شهادة سواهُ، فأيسوا من[(٢)] الشّاهِد.

(١) هذه الزيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «فالسوى هو الشاهد» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح.

وقد كان الحسنُ يقول: إن الله تبارك وتعالى لا يَعْبأ بصاحبِ روايةٍ إنما يعبأ بذى فهمٍ ودرايةٍ. وقال أيضًا: من لم يكن له عَقْلٌ يَسُوسُه لم تَنفعه كثرةُ مَرْوياته للحديث.

وقد أُنشدنا لبعض الحكماءِ فى معنى ذلكَ:

العلمُ عِلْمـانِ فمصنوعٌ ومَجمـوعُ[1]

ولا يَنفَـعُ مجمـوعٌ إذا لم يَكُ مصنـوعُ

كما لا تنفع الشمسُ وضَوْءُ العينِ ممنـوعُ

وكان الجنيد رحمه الله كثيرًا ينشد:

علمُ التصـوُّف علمٌ ليسَ يعرفُـه

إلاَّ أخـو فطنـةٍ، بالحقِّ مَوْصـوفُ[2]

وكيف يَعرِفُ شيئًا[3] ليسَ يشهَـدُه

وكيفَ يشهد ضَوْءَ الشمسِ مكفوفُ؟!

لأنَّ الكتبَ والمجْمُوعاتِ مُحْدَثة، والقولُ بمقالاتِ الناسِ، والفُتْيا بمذهبِ الواحِدِ منَ الناس، وانتحالُ[4] قولِه والحكايةُ له فى كلِّ شيءٍ، والتفقّه على مذهبه ـ محدَثٌ، لَمْ يكنِ الناسُ قديمًا على ذلكَ فى القرنِ الأوّل والثانى.

وهذه المصنفات من الكتبِ حادثةٌ بعدَ سَنَة عشرينَ ومائةٍ منَ التاريخِ، وبعد وفاةِ كلِّ الصحابةِ وعِلْيةِ التابعين. يقال: إنّ أوّلَ كتابٍ صُنِّفَ فى الإسلام كتابُ ابن جُرَيج فى الآثارِ وحروف من التفاسيرِ، عَنْ مجاهدٍ، وعطاء، وأصحابِ ابن عبَّاس بمكة. ثم كتاب: مَعْمر بن رَاشِدِ الصَّنعَانىّ، باليمَنِ، جَمَعَ فيهِ سُنُنًا منثورة مبوّبة.

---

(١) فى (ط): «ومطبوع».

(٢) فى (ط): «معروف».

(٣) فى (ط): «وليس يعرفه من».

(٤) فى (ط): «وانتحاء».

ثم كِتابُ «الموطأ» بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه. ثم جمع ابن عُيينة كتابَ الجوامع فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، و«جامع» سفيان الثورىّ الكبير رضى الله عنه فى الفقهِ والأحاديث، [صنّفه أيضًا فى هذه المدّة][1].

فهذه من أوّل ما صُنِّف ووُضِع من الكتب بعد وفاةِ سعيد بن المسيَّبِ وخيارِ التابعين، وبعد سنةِ عشرينَ ومائةٍ أو أكثر من التاريخ. فكانَ العلماءُ الذينَ هُمْ أئمَّةُ هؤلاء العلماء من طبقات الصحابةِ الأربعة ومنْ بعد موت الطبقة الأُولى منْ خيارِ التَّابِعينَ، هُمُ الَّذين انقَرضوا قبلَ تصْنيفِ الكُتُبِ، وكَانُوا يكَرهُونَ كُتُبَ الحديثِ، ووَضْعَ الناس الكتُبَ؛ لئلا يُشتغلَ بِها عن القرآنِ وعن الذكر والفكرِ. وقالوا: احفَظُوا كما حَفِظنا. ولئلاَّ يشتغلَ الناسُ عن الله تعالى برسمٍ ولا وسْمٍ، كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعِلْيةُ الصحابة تصحيفَ القرآن فى مصحفٍ وقالوا: كيف نفعل شيئًا لم يَفعلْهُ رسول الله ﷺ؟ وخَشُوا اشتغَالَ الناس بالصُّحُفِ واتكالَهم على المصاحف فقالوا: نتركُ القرآنَ يتلقاه الناسُ بعضُهم من بعض تلقنًا بالتلقينِ والإقراء، ليكونَ هُو شغلَهُم وهمتَهُمْ وذكرَهُمْ، حتَّى أشارَ عليه عمرُ رضىَ الله عنه وبقيةُ الصحابة أن يجمعَ القرآنَ فى المصاحفِ؛ لأنه أحفظُ له وليرجعَ الناسُ إلى المصحفِ لما لا يُؤمَنُ منَ الاشتغالِ بأسبابِ الدنيا عَنْهُ، فشَرحَ الله تعالى صَدْرَ أبى بكرٍ رضى الله عنه لذلكَ فجَمَع القرآنَ من الصُّحُفِ المتفرِّقةِ فى المصحف الواحد.

وكذلك كانُوا يتلقَّونَ العلمَ بعضَهُمْ عن بعضٍ ويحفظُونَه حفْظًا. هَذَا لطهارة القلوبِ من الريب، وفَراغِها من أسباب الدنْيا، وصفَائها من الهَوى، وعلوِّ الهمَّة وقوّةِ العزيمة وحسنِ النية.

ثمّ ظهرتْ بعدَ سنة مائتين، وبعد تقضِّى ثلاثةِ قرون فى القرن الرابع المرفوضِ، مصنفاتُ الكلامِ وكتبُ المتكلمينَ بالرأى والمعقولِ والقياسِ، وذهبَ علمُ المتقينَ، وغابتْ معرفةُ الموقنينَ من علمِ التقوى وإلهام الرشدِ واليقين، فخلفَ من بعدهم

(١) زيادة من (ك).

خَلْفٌ فلم نزلْ فى الخلُوفِ إلى هذا الوقت، [والله المستعان، ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم][1].

ثم اختلط الأمرُ بعد هذا التفصيل فى زماننا هذا، فصَارَ المتكلِّمُونَ يُدْعَون عُلَماءَ، والقُصَّاصُ يُسمَّوْن عارِفين، والرواةُ والنقلةُ يقال علماءُ، من غير فقهٍ فى دينٍ ولا بصيرةٍ فى يقينٍ.

وروينا عن ابن أبى عبلةَ قال: «كنا نجلسُ إلى عطاءِ الخُراسَانى بعد الصبح فيتكلَّمُ علينا، فاحتبسَ ذاتَ غداة، فتكلمَ رجلٌ منَ المؤذنين لا بأسَ به بمِثلِ مَا كان يتكلمُ به عَطَاء، فأنكَر صوتَه رجاءُ بن أبى حَيْوَة فقال: من هذا المتكلمُ؟ فقال: أنا فلانٌ. فقال: اسكُتْ فإنه يُكره أن يُسمَعَ العلم إلا من أهله.

وكذلك كانُوا يقولُون: أبىَ أهلُ العلمِ باللهِ تعالى أن يَسمعوا هذا العلم إلا من أهلهِ الزاهِدين فى الدُّنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدُّنيا وزعمُوا أنّه لا يليقُ بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكُر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يَسعْهُ تقليدُ أحدٍ من العلماءِ. وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحُوا هذا المقام خالَفُوا مَنْ حملوا عنه العلمَ لمزيد اليقينِ والإفهام. وقال ابنُ عباس رضى الله عنهما: ليسَ أحدٌ إلا يُؤْخَذُ من قوله ويُترَكُ إلا رسولُ الله ﷺ. وقد كانَ تعلّم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أُبَىّ بن كعبٍ، ثم خالف زيدًا فى الفقه، وأبيًا فى القراءة.

وقال بعضُ الفقهاءِ من السلفِ: ما جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَبلناه على الرأس والعينِ، وما جَاءَنا عن الصحابة فنأخذُ به ونتركُ، وما جاءنا عن التابعين فهُمْ رِجَالٌ ونحنُ رجالٌ. قالوا: ونقولُ: ولأجلِ ذلك كَانَ الفقهاءُ يَكْرهُونَ التقليدَ ويقولُون: لا ينبغى للرَّجُل أن يُفتى حتَّى يعرفَ اختلافَ الفقهاء، أى فيختارُ منهَا على علمِه الأحوطَ للدِّينِ والأقوى باليقينِ. فلو كَانُوا يستحبُّونَ أن يُفتِىَ العَالِمُ بمذهبِ غَيرِه لم يَحْتَجْ أن يعرفَ الاختلافِ، ولكانَ إذَا عَرَفَ مذهبَ صاحبِه كفاه.

(١) زيادة من (ك).

ومن ثَمَّ قيل: إنَّ العبدَ يُسألُ غدًا فيقالُ: ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمتَ؟ ولا يقالُ له: فيما علم غَيرُك.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ [الروم:٥٦]، ففرَّق بينهُما، فدلَّ به أنَّ من أُوتِيَ إيمانًا أوتِي علمًا، كما أنَّ مَنْ أوتِيَ علمًا نَافعًا أُوتِي إيمانًا. وهذا أحدُ الوجوهِ فى معنَى قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] أى: قوَّاهم بعلم الإيمانِ، فعلمُ الإيمانِ هو روحُه وتكونُ «الهاءُ» عائدةً إلى الإيمان. وكذا العالمُ الذى هُوَ من أهْلِ الاستنباطِ والاستدلال من الكتابِ والسُّنةِ، فإنَّه أداةُ الصَّنْعةِ وآلةُ الصنع؛ لأنه ذُو تمييزٍ وبصيرةٍ ومن أهلِ التدبُّرِ والعبرةِ.

فأما الجَاهِلُ والعامِّىُّ الغافلُ فله أن يقلِّدَ العلماءَ، ولِعالمٍ عمومٍ أيضًا أن يقلِّدَ عالمَ خصوصٍ، وللعالم بالعلم الظاهرِ أن يقلِّدَ مَنْ فوقه ممَّن جُعل على عِلْمِ باطنٍ من أهل القُلوبِ؛ لأن النبى ﷺ ردّ منْ علمِ الألسنةِ والفُتْيا إلى علم القلوبِ، ولم يردَّ أهلَ القلوبِ فى علمهمُ الذينَ يختصُّونَ به إلى المفتينَ، لأنهم يأخذُونَ من المفتين فُتياهُمْ ثم يجدونَ فى قلوبهم حيكًا وحَزازة، فيلزمهم فُتيا القلبِ، لقوله: «استفتِ قلبك» بعد قوله: «وإن أفتاك المفتون» مع قوله: «الإثم حزَّازُ القلوب» إلى قوله: «مَا حاكَ فى صَدْرِكَ فدَعْه، وإن أفتوْك وأفتوْك».

ثم دَرس معرفةُ هذا أيضًا فجُهل، فصارَ كلُّ مَنْ نطقَ بكلامٍ وصفُه غَرَب عَلى السامعين[1]، لا يُعْرَف حقّه من باطله، سُمِّى عَالمًا. وكلُّ كلام يُستحسن زخرفُهُ ورونقُه لا أصلَ له يُسَمَّى علمًا؛ لجهل العامَّةِ بالعلمِ أىِّ شىءٍ هُو؟ ولقلّة معرفةِ السامع بوصف مَنْ سلف من العلماء كيفَ كانوا[2]، فصارَ كثيرٌ من متكلمى الزمانِ فتنةً لمفْتُون، وصارَ كثيرٌ منَ كلامِ الرأى والعقل[3]، الذى حقيقتُه جهلٌ،

(١) هذه الجملة ليست فى (ك). وغرب: أى كان غريبًا فى لفظه ومعناه.

(٢) عبارة (ك): «لجهل السامعين بالعلم أى شىء هو؛ ولقلة معرفة الحاضرين بوصف من غاب من العلماء كيف كانوا».

(٣) فى (ظ): «وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول» وأثبت ما فى (ك).

كأنَّه علْم عند الجاهلين، فلا يفرقُون بين المتكلمين والعلماء، ولا يميِّزون بين العلمِ والكلام. وقد قلْنا: إنّ خصوصَ الجُهَّال يُشبِّهُونَ بالعلماء، فيشتبهونَ على مُجالسيهم فى الحال. فأعلمُ الناس فى زمانك هذا أعرفُهُم بسيرةِ المتقدمينَ، وأعلمهُم بطرائقِ السالفينَ، ثم أعلمُهمْ بالعلمِ أىَّ شىء هو، وبالعالم مَنْ هو، ومَنْ المتعلِّم والمتعالم. وهذا كالفرض على طالبِى العلمِ أن يعرفوه، لأنه لما قَال ﷺ: «طَلَبُ العلمِ فَريضة» وجب عليهم أن يَعْرِفوا أىَّ شىء هو العلم حتَّى يطلبوهُ، إذْ لا يصحُّ طلبُ مَا لا يُعْرَفُ. ثُمّ وجَبَ عليهم مِنْ هذَا أن يَعْرِفُوا العالمَ مَنْ هُو ليطلبوا عنده العلمَ؛ إذ العلمُ عَرَضٌ ولا يقوم إلا بجسم، فلا يوجدُ إلا عند أهله.

كما قيل لعلىّ كرم الله وجهه وقيل له: إنك خالفتَ فُلانًا فى كذا، فقال: خَيرُنا أتبعنا لهذا الدّين.

وكما قيل لسعد: إن ابنَ المسيِّب يقرأ: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسأها» فقال: إن القرآنَ لم ينزل على ابن المسيِّبِ ولا على أبيه، ثم قرأ: ﴿أو نُنْسِها﴾ [البقرة:١٠٦].

فأعلمُ الناس فى هذا الوقتِ وأقربُهم من التوفيقِ والرُّشْدِ أتبعُهُم لمن سلفَ، وأشبهُهم بشمائل صالحى الخلف. كيف وقد روينا عن رسُولِ الله ﷺ أنه سُئِلَ: «مَنْ أعلمُ الناسِ؟ فقال: أعرفُهُمْ بالحقِّ إذا اشْتَبهَتِ الأمورُ».

وقال بعضُ السلف: أعلمُ الناس أعرفُهُمْ باختلافِ النَّاس.

وكان الحسنُ البصرىُّ رضى الله عنه يقول: مُحْدَثان أُحْدِثا فى الإسلام: رجلٌ ذُو رأى سوءٍ زَعمَ أن الجنَّة لمن رَأى مثلَ رأيه. ومُترَفٌ يعبدُ الدنْيا، لها يَغْضبُ ولها يَرضَى وإياها يطلبُ، فلرفُضُوهما إلى النار، اعرفوا إنكارَهُمْ لربِّهم بأعمالهم. إنّ رَجُلاً أصبحَ فى هذه الدنيا بين مترَف يدعُو إلى دنياه، وصاحبِ هوًى يدعُو إلى هواه، قد عصمه اللهُ تعالى منهما، يَحِنُّ إلى السَّلفِ الصَّالح، يسألُ عن فعالهم، ويقتصُّ آثارهم، لَتعرَّضَ لأجرٍ عظيمٍ، فكذلك فكونوا.

وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد جاء مسندًا: «إنما هما اثنان: الكلام والهدى، فأحسنُ الكلامِ كلامُ الله تعالى، وأحسنُ الهَدْى هدْىُ محمدٍ

ﷺ، ألاَ وإياكم ومحدثات الأمورِ، فإنَّ شرَّ الأمورِ محدثاتُها، وإنَّ كلَّ محدثة بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ. ألاَ لا يَطولَنّ عليكُمُ الأمدُ فتقسُوَ قلوبكم. ألاَ كُلُّ ما هوَ آتٍ قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآت».

وفى خُطبةِ النبى ﷺ التى رويناها عن أبان عن أنسٍ: «طُوبَى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس، وأنفقَ من مَالٍ اكتسَبَهُ من غيرِ معصيةٍ، وخالط أهلَ الفقه والحكمة، وجانبَ أهلَ الذلِّ والمعصيةِ. طُوبى لمن ذلّ فى نفسه، وحسُنَتْ خليقتُه، وصلُحَتْ سريرتُه، وعزلَ عن الناس شرَّهُ. طُوبى لمنْ عَمل بعلْمِه، وأنفقَ الفَضْلَ مِنْ ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووسِعَتْه السُّنةُ، ولم يَعْدُها إلى بِدْعةٍ».

وقال بعضُ الأدباءِ كلامًا منظُومًا فى وصفِ زماننا هذا، كأنَّه شاهَده:

ذهبَ الرجالُ المقتدَى بفعالِهمْ ... والمنكِـرون لكـلِّ أمـرٍ مُنكَـرِ
وَبقِيـتُ فى خَلَفٍ يزكّى بعضُهم ... بَعْضًا ، ليَدفعَ مُعْـوِرٌ عن مُعـوِرِ
أبُنىَّ إنَّ مِنَ الرجـــال بَهيمـةٌ ... فى صُورةِ الرجُلِ السميعِ المبصرِ
فَطِنًا بكل مصيبــةٍ فى مَـــالهِ ... فإذَا أُصيـبَ بدينـهِ لمْ يَشعُرِ
فسَـلِ الفقيـهَ تكنْ فقيهًا مثلَهُ ... مَنْ يَسْعَ فى أمرٍ بفقهٍ يَظْفرِ

وقد كان ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه يقول: حسنُ الهدَى فى آخرِ الزمانِ خيرٌ من كثيرٍ من العلم. وقال فى وصف زمانه باليقين، وفى وصفِ زماننا بالشَّكِّ فقال: إنكم فى زمانٍ خيركم فيه المسارِعُ فى الأمورِ، وسيأتى بعدكم زمانٌ يكونُ خيرُهمْ فيه المتثبِّت المتوقِّفُ. يعنى: لكثرة الشبهات.

وقال حذيفةُ رضى الله عنه أعجبَ من هذَا، قال: إنّ معْروفكم هَذا مُنكَرُ زمان قد مَضى، وإنَّ مُنكَرَكُمْ معْروفُ زمانٍ قد يأتى. وإنكم لنْ تزالُوا بخيرٍ مَا عرفتُمْ الحق، وكان العالِمُ فيكم غيرَ مُستخفٍ. وكان يقول أيضًا: يأتى فى آخرِ الزمان قومٌ يكونُ العالِمُ فيهم بمنزلةِ الحمار الميت، لا يلتفتُونَ إليه، يَسْتخفِى المؤمنُ فيهم كما يَسْتَخْفِى المنافقُ فِينَا اليومَ، المؤمنُ فيهم أذلُّ من الأمَة.

وفى حديث على كرّم الله وجهه: يأتى على الناس زمانٌ ينكرُ الحقَّ تسعةُ أعشارهم، لا ينجُو منهُم يومئذٍ إلا كلُّ مؤمن نُوَمة (يعنى: صَمُوتًا متغافلاً) أولئكَ مصابيحُ العلم، وأئمةُ الهدَى، وليسُوا بالمذَايِيعِ[1] البُذُرِ. (يعنى: المتكلّمين كثيرًا) المتظاهرينَ بالكلام افتخارًا.

وفى خبر: «يأتى على الناس زمانٌ مَنْ عرَف فيه الحقَّ نَجَا. قيلَ: فأينَ العمل؟ قال: لا عملَ يومئذٍ، لا ينجُو[2] فيه إلا من هَرَب بدينه من شاهقٍ إلى شاهقٍ.

وفى حديث أبى هريرةَ رضى الله عنه: «يأتى علَى الناسِ زمانٌ مَنْ عَمِل منهُم بعُشْرِ ما أُمِرَ به نَجَا». وفى بعضها: «بعشرِ مَا يعلَمُ». وعن بعض الصحابة [رضى الله عنهم]: أنتمُ اليوم فى زمان من تركَ منكم عُشرَ مَا يعلمُ هلكَ، ويأتى عليكم زمانٌ من عَمِل فيه بعُشْرِ ما يَعْلَمُ نجا.

وقال بعض الحكماء[3]: يأتى عليكم زمَانٌ يكونُ أفضلَ العلم الصمتُ، وأفضلَ العمل النومُ. يعنى: لكثرة الناطقين بالجهل[4] فصار الصمتُ للجَاهِل علمًا، ولكثرة العاملين بالهَوى[5] فصار النوم عبادةَ الطَّال. ولعمرى إن الصمتَ والنومَ أدنَى أحوال العالِم، وهما أعلى أحوال الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقولُ: أصبحَ اليومَ مَنْ يعرفُ السُّنَّةَ غَريبًا، وأغربُ منهُ من يعرفه. يَعنى: طريقةَ السلف. يقول: فمن يَعْرِفُهُ عَرَفَ طريقَ مَنْ مَضَى، وَهُوَ غريبٌ أيضًا، لأنه قد عَرَف غريبًا.

وقال حذيفةُ المرعشى: كَتَب إلىَّ يوسفُ بن أسباط: ذهَبَت الطاعَةُ ومَن يَعْرِفُها. وكان أيضًا يقول: ما بقى من يُؤنَسُ به. وقال: ما ظنُّكَ بزمانٍ مذاكرةُ العلمِ فيه مَعْصيةٌ. قيلَ: ولم ذلكَ؟ قال: لأنه لا يجدُ أهلَهُ.

---

(١) فى (ك): «بالمزاريع». والمذايع: جمع مذْياع، من أذاع الشىء إذا أفشاه. والبذر: جمع بذور، يقال: بذرتُ الكلامَ بين الناس، أى أفشيتُه وفرّقته.

(٢) فى (ك): «لا يسلم».

(٣) فى (ط): «الخلفاء».

(٤) فى (ط): «لكثرة المنافقين بالشبهات» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ط): «ولكثرة العاملين بالشهوات» وأثبت ما فى (ك).

وقد كَانَ أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما أحببتمْ خِيارَكُمْ، وقِيلَ فيكمُ الحَقُّ فعُرِفَ، ويلٌ لكم إذا كان العالِم فيكمْ كالشاةِ النطيح.

وقد كان للمتقدمينَ علومٌ يجتمعون عليها ويتفاوضُونَها بينهم قَدْ دَرَسَتْ فى زَمَانِنَا. وكان للصَّالحين مَعَانٍ وَطَرَائقُ يسلكُونَها ويَسْألونَ عَنْها، قد ذهَبتْ فى وَقتنا. وكان لليقين والمعرفة مقاماتٌ وأحوالٌ، يتذاكرهَا أهلُها، ويطلبونَ أربابَها، قد عَفَتْ آثارُها عندنَا، لقلَّةِ الطالبينَ لها، ولِعدَمِ الرَّاغبينَ فيَها، وفَقْد العلماء بها، وذهاب السالكينَ فى طرقها، منها:

طلبُ الحلال، وعِلْمُ الورعِ فى المكاسبِ والمعاملاتِ، وعلمُ الإخلاص، وعلمُ آفاتِ النفوس وفسادِ الأعمال، وعلمُ نفاق العلم والعمل، والفرقُ بين نفاقِ العلم والعمل، والفرقُ بين نفاق القلب ونفاقِ النفسِ وبين إظهار النفس شهوتَها وإخفائها ذلك، والفرقُ بين سكون القلبِ بالله وسكون النفسِ بالأسباب، والفرقُ بين خواطِرِ الروحِ والنفس وبينَ خاطرِ الإيمانِ واليقين والعقلِ، وعلمُ خلائقِ الأحوال، وأحوالُ طرائقِ العمَّالِ، وتفاوتُ مشاهداتِ العارفينَ، وتلويناتُ الشواهد على المريدين، وعلمُ القبضِ والبسط، والتحقيقُ بصفاتِ العبودية، والتخلقُ بأخلاقِ الربوبية، وتباينُ مقاماتِ[1] العلماء، إلى غير ذلك ممّا لا نذكرهُ من علم التوحيد، ومعرفةِ معانى الصِّفاتِ، وعلوم المكاشفة بتجلِّى الذاتِ، وإظهار الأفعال الدالَّة على معانى الصفاتِ الباطنة، وظهور المعانى الدالة على النظر والإعراض، والتقريب والإبعاد، والنقْصِ والمزيدِ، والمثوبةِ والعقوبةِ، والاختبار والاختيار.

وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولاً، ورسمنا جُمَلاً وأصولاً، تنبِّه على فروعها، وتدلُّ على أشكالها، لمن وُفِّق لتدبرِها، وأُريد بتذكُّرها، وَجُعل له نصيبٌ مِنْها.

وقال بعضُ علمائنا: أعرفُ للمتقدِّمينَ سبعين علْمًا، كانُوا يتحاوَرونها ويتعارفُونها فى هذا العلم، لم يبقَ منها اليومَ علمٌ واحد يُعْرَف. قال: وأعرف فى زماننا هذا عُلُومًا كثيرةً من الأباطيل والدعاوى والغرور، وقد ظهرتْ وسُمِّيتْ

(١) فى (ك) «وتفاوت مشاهدات»

عُلُومًا لَمْ تكنْ فيمَا مضَى تُعْرَفُ، فهذا كالسَّرابِ الذى وصفه الله تعالى فقال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وكان الجُنيد رحمه الله تعالى من قبله يَقُول: علْمُنا هذا الذى نتكلَّمُ فيه قد طُوى بِسَاطُه منذ عشرينَ سنةً، وإنَّما نتكلّمُ فى حَوَاشِيه. وكانَ يقولُ أيضًا: قد كنتُ أجالسُ قومًا سنينَ يتحاورُون فى علومٍ لا أفهَمُهَا، ولا أدْرى ما هى، وما بُليتُ بالإنكَارِ قطّ، كنتُ أتقبَّلُها وأحبُّها مِنْ غيرِ أنْ أعْرِفها. وكان أيضًا يقُولُ: كنا نتَجَارى[1] مع إخواننا قديمًا فى علومٍ كثيرة ما تُعْرَفُ فى وقْتِنَا هذا، ولا سَألنى عنْها أحَدٌ، وهذا بابٌ قد أُغْلِق ورُدِمَ.

ولَمَّا صنّف شيخُنا أبو سعيد بن الأعرابىّ كتابَ (طبقاتِ النسَّاك)، وصفَ أوّلَ مَنْ تكلَّمَ فى هذا العلم وأظهَرَهُ، ثُمَّ مَنْ بعده من البصريينَ والشَّاميِّينَ وأهلِ خُراسان إلى أن كانَ آخرُهمْ البغداديين. وقال آخر: مَنْ تكلَّم فى هذَا صَاحِبُنَا جُنيدٌ القَواريرى وكانتْ له بصيرَةٌ فيه وحقيقةٌ منه وحسنُ عبارة، وما بَقِىَ بَعْدَهُ إلا مَنْ مُجَالستُه غيظٌ. وقال مرة أخرى: ما بَقِىَ بَعْدَ جُنيدٍ إلا مَنْ يُسْتَحى من ذِكْرِه.

وقد كان إمامُنا أبُو محمدٍ سهل رحمه الله يقول: بعد سنة ثَلاثمائة لا يَحِلُّ أن يُتكلَّم بِعلمنَا هذا، لأنَّه يحدُث قومٌ يتصنّعونَ للخلقِ، ويتزيَّنُون بالكَلامِ؛ لتكون مواجيدُهم لِباسَهم، وحِلْيَتُهم كلامَهم، ومعبُودُهم بطونَهم.

وقد كان حذيفةُ رضى الله عنه إذا سُئِل: أىُّ الفِتَنِ أشدُّ؟ قال: أن يُعْرَضَ عَلَيكَ الخيرُ والشرُّ، فلا تدْرى أيَّهما تأخذ؛ لكثرة الشبهات.

كما كان سهلٌ يقول: بعد سنةِ ثلاثمائة لا يصحُّ لأحد توبة، لأنَّه يَفْسُدُ خُبزُهُم، وهم لا يصْبرون عن الخبز. يعنى: أن أوَّلَ التوبةِ أكلُ الحلال. وقد روينا فى خبرٍ: «يأتى على الناسِ زمانٌ يُضلُّونَ فيه دينَهُم فلا يعرفونَهُ، يُصْبح الرجُلُ على دِينٍ ويُمسى على دين. يضلُّ أمره على غير يقين، وتُسْلَبُ عقولُ أكثر أهل ذلك الزمان. وأوّلُ ما يُرْفَع عنهُم الخشوعُ، ثم الإجابةُ، ثمَّ الورعُ. ويقال: أوّلُ ما يُرْفَعُ من الناسِ الأُلْفةُ.

(١) تجاروا فى الحديث: تناظروا فيه.

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف [١]

كانَ الناسُ قديمًا إذا التقَوْا يقول أحدُهم لصاحبه: ما خبرُك وما حالُك؟ يعنونَ بذلكَ: ما خبرُ نفسك فى مجاهدتها وصبرها؟ وما حالُ قلبك من مزيدِ الإيمانِ وعلمِ اليقين؟ ويريدون أيضًا: ما خبرُك فى المعاملة لمولاك؟ وما حالُكَ فى أمور الدنيا والآخرة؟ هل ازددتَ أم انتقصتَ؟ فيتذاكرون أحوالَ قلوبهم، ويصفون أعمالَ علومِهم، ويذكُرون مَا وهب اللهُ تعالى لهم من حسن المعاملةِ، وما فتحَ لهم من غرائبِ الفهومِ. فكان هذا من تعديدِ نعمِ الله تعالى عليهم، ومن جميل شكرهم، ويكون مزيدًا لهم فى المعرفةِ والمعاملةِ.

وقد كان بعضُهم يقول: أكثرُ علومنا ومواجيدنا ما يعرفُه بعضُنا من بعضٍ، وما يخبرُ به أحدُنا أخاه إذا التقينا، فقد جُهِلَ هذا اليومَ فتُرِكَ، فهُم إذا تساءلوا عن الخبر والحالِ إنَّما يريدونَ به أمورَ الدنيا وأسبابَ الهوى، ثمّ يشكُو كلُّ واحدٍ مولاه الجليلَ سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، ويتسخَّطُ أحكامَه، ويتبرَّم بقضائه، وينسَى نفسَه وما قدّمت يداه، فمَثَلُه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦] قيل: كفورٌ بنعمته، يُعدِّدُ المصائب وينسى النعَمَ. كلُّ ذلكَ جَهَالةٌ بالله تعالى وغفلةٌ عنه.

ومنه قولهم الآن: كيفَ أصبحت؟ وكيف أمسيتَ؟ هذا مُحدَثٌ. إنّما كانُوا إذا التقوْا قالوا: السلامُ عليكُم ورحمةُ الله. وفى الخبر: «من بدأكُم بالكلام قبلَ السلامِ فلا تُجيبوه». وإنَّما حَدَثَ هذا فى زمانِ الطاعُون، الذى كان يُدْعَى «طاعون عَمْواس» بالشام، من الموت الذريع، كان الرجلُ يلقَى أخاه غُدوةً فيقولُ:

(١) انظر: الإحياء ٢/ ٣٣٥.

كيف أصبحتَ من الطاعون؟ ويلقاه عشيَّةً فيقول: كيف أمسيتَ منه؟ لأنّ أحدَهم كان إذا أصبحَ لم يُمس، وإذا أمسى لم يصبح. فبقى هذا إلى اليوم ونُسِى سببه، وكان من عَرفَ حُدوثَه من المتقدمين يكرهُه. حدّثُونا عن أحمدَ بن أبى الحوارى قال: قال رجلٌ لأبى بكر بن عيَّاشٍ: كيف أصبحتَ، أو كيف أمسيت؟ فلم يكلِّمْه، وقال: دعُونا من هذه البدعَةِ. قال: وقلتُ لبعضِ السلفِ: كيفَ أصبحت؟ فأعرض عنِّى، وقال: ما كيف أصبحتَ؟ قل بالسَّلامِ.

وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه: إنّما كانوا يقولونَ: السلام عليكم، سَلِمَت والله القلوبُ. فأما اليومَ: كيف أصبحت أصلحك الله؟ كيفَ أمسيت عافاك الله؟ فإنْ أخذْنا بقولهم كانت بِدْعةً، ألاَ ولا كرامةَ فإن شاؤُوا غضبوا علينا.

ومن ذلكَ ابتداءُ الرجل فى عنوان الكتابِ باسم المكتوبِ إليه، وإنّما السّنةُ أن يبتدئ بنفسه فيكتبُ: مِنْ فلانٍ إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: غبتُ غيبةً فكتبتُ إلى أبى فابتدأت باسمه، فكتبَ إلىَّ: يا بنى، إذا كتبتَ إلىَّ فابدأ باسمكَ فى الكتاب، فإن ابتدأتَ باسمى قبل اسمك، لا قرأتُ لك كتابًا، ولا رَددْت إليك جوابًا.

وكتب العلاءُ بن الحضرميّ رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فبدأ بنفسه وكتبَ: من العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ.

ويقال: أولُ مَنْ أحدثَه «زياد» فعابَه العلماءُ عليه، وعدُّوه من إحداث بنى أمية. وقد بَقى سُنّةً هذا فى كتب الخلفاء والأمراءِ إلى اليوم، على نحوِ ما مضى، فهم يُقدِّمونَ أسماءَهم فى كتبهم.

ومن الإحداث: قولُ الرجل إذا جاء منزل أخيه: يا غلامُ، يا جاريةُ. فيه مخالفةٌ لأمر الله عزّ وجلّ وأمر رسوله عليه السلام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾ [النور:٢٧]. قال أهلُ التفسير: الاستئناسُ: الدّقُّ، أو التنحنح، أو الحركَةُ، حتى يُؤذنَ بذلكَ أن وراءَها إنسَانًا. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا جاءَ أحدُكُم منزلَ أخيه فليُسلِّمْ ثلاثًا، فإن أُذنَ

لهُ فليَدخلْ، وإلا فَليرجعْ».

وكان السلفُ يَقرع أحدُهُمْ بابَ أخيه، ثم يسلِّمُ ثلاثًا يقفُ بعدَ كلِّ تسليمةٍ هُنيهةً، فإن أُذنَ له دخلَ. وقدْ لا يحبُّ صاحبُ المنزلِ أن يدخل عليهِ فى ذلك الوقتِ؛ لسببِ عذرٍ له، فيقولُ: وعليكم السلام ورحمة الله، ارجعْ عافاك الله، فإنى على شغل، فيرجع عنه غير كاره لرجوعه، ولا يؤثر ذلكَ عليهِ فى نفسه. وقد يكونُ قوله «ارجعْ» أحبَّ إليه؛ لأنه أفضلُ له رجاءَ الإجابةِ والتزكيةِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فربما رجَعَ فى اليومِ مرّتين أو ثلاثًا بعد ردِّ صاحبِهِ له وهو يعودُ؛ لأنَّ ذلك لم يؤثِّر فى قلبِه شيئًا. وهذا لو فُعل ببعضِ الناسِ من أهلِ عصرِنا هذا لكرههُ، ولعلَّ أن لا يعودَ يومَهُ ذلك[1].

فأمّا العلماءُ فقد كانَ بعضُ الناسِ لا يستأذنُ عليهم إلا لمهمٍّ لا بدَّ منه، بل كانوا يقعدُون على أبوابِهم وفى مساجِدِهم ينتظرُون خروجهم لأوقاتِ الصَّلاةِ؛ إجلالاً للعلم وهيبةً للعلماءِ.

وحدثُونا عن أبى عبيدٍ قال: ما قرعتُ على عالمٍ قط بابَهُ، كنتُ أجيءُ إلى منزلِه فأقعدُ على بابه أنتظر خروجه من قِبَلِ نفسه، أتأوّل قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات:٥].

وقد رُوينا مثلَ هذا عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما فى موضعِهِ من العلمِ والشرف: أن المارَّ كانَ يمرُّ به وهو قَائمٌ على بابِ منزلِ الرجلِ منَ الأنصار، تسفى عليه الرياحُ، فيقول: ما يُجلسكَ ههنا يا ابنَ عمِّ رسولِ الله؟ فيقول: أنتظر خروجَ صاحبِ المنزلِ. فيخرج الرجلُ فيقول: ابنُ عمِّ رسول الله؟ لو أرسلتَ إلىّ لجِئتُكَ، فيقول: لا، أنا كنتُ أحقَّ أن آتيَكَ. فيسألُه عمّا يريدُ من حديثٍ بَلغَه أنَّه يرويهِ عن رسولِ الله ﷺ لم يكن هو سمعَهُ منهُ.

(١) وكيف بعصرنا نحن اليوم، فقد تكون قطيعة؟!

ومن ذلك(١): استقصاءُ الرجلِ في المسألةِ عن حالِ أخيهِ وخبرهِ. وقد كُرِهَ ذلكَ. تزوّجَ سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه، فلمّا دخلَ على أهلهِ خرجَ إلى الناسِ من الغدِ، فقالَ لهُ رجلٌ: كيفَ أنتَ يا أبا عبدِ الله؟ قال: بخيرٍ أحمدُ الله تعالى، قال: كيفَ حالُك وكيف بتَّ البارحةَ؟ وكيف وجدتَ أهلك؟(٢) فغضب سلْمان وقال: لِمَ يَسْأل أحدُكم فَيُحْفى(٣) المسألة، ويَسْألْ عما وراءَ البيوتِ؟ يكفى أحدُكم أنْ يسألَ عن ظاهرِ الأمر.

وأما سليمانُ بن مهرانِ الأعمشُ، فإنَّ رجلاً قال له في منزله: كيفَ أنت يا أبا محمد؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ قال: في عافية. قال: كيف بِتَّ البارِحةَ؟ فصاحَ: يا جاريةُ انزلى بالفراش والمخاد، فأنزلتْ بذلكَ. فقال: افرشى، ففرشت. فقال: اضطجعى(٤) حتَّى أضّطجعَ إلى جنبكِ لنُرِيَ أخانَا(٥) كيف بتُّ البارحةَ. وكان يقولُ: يلقَى أحدُهم أخاه فيسألُه عن كلِّ شيءٍ، حتَّى عن الدجاجِ في البيتِ، ولو سأله درهمًا ما أعطاه(٦).

وكانَ مَنْ مضى مِنَ السلفِ إذا لَقِيَ أخاه لا يزيدُ على قوله: كيف أنتم؟ أو: حيَّاكم الله بالسلام، ولو سأله شطْرَ ماله قاسمَه.

ومن ذلك: قولُ الرجل لأخيهِ إذا لقيهُ ذاهبًا في الطريق: إلى أين تريد؟ أو: من أين جئت؟ فقد كُرِه هذا، وليس مِنَ السُّنَّةِ ولا الأدبِ، وهو داخلٌ في التجسسِ والتَّحسس؛ لأنّ التحسسَ في الآثار، والتجسسَ في الأخبارِ، وهذا السؤالُ عن ذلك يجمعُهما، وقد لا يحبُّ الرجلُ أن يعلمَ صاحبُه أين يذهب ولا من أين جاءَ.

---

(١) أي من الأمور المحدثة التي يسردها.

(٢) في المطبوعة: «وفي لفظ آخر: كيف وجدت أهلك» وأثبت ما في (ك).

(٣) يحفى: أحفَى السؤالَ: ردَّدهُ، وألحَّ فيه.

(٤) في (ط): «افرشى واضطجعى» والزيادة من (ك).

(٥) في (ك): «حتى يرى أخونا».

(٦) في المخطوطة كرر هذا الخبر بروايته عن «الأعمش».

وقد كَرِهَ ذلك[١] مجاهدٌ وعطاءٌ، قالا: إذا لقيتَ أخَاكَ فى طريقٍ فلا تسألْه من أين جئتَ ولا أين يذهبُ، فلعلَّه أن يَصْدُقَكَ فتكرَه ذلك، ولعله أن يَكْذِبَك فتكونَ قد حمَّلْته [ما يشق][٢] عليه.

وقد كانوا يكرهُونَ بيعَ المصاحفِ وشراءَها. وكانَ بعضُهم لبيعِها أكرَه منهُ لشرائِها.

وقد ابتدعَ الناسُ علومًا لم تكن تُعرف فيما سلفَ، منها: علمُ الكلام والجدلِ، وعلومُ المقاييسِ والنظرِ والاستدلالِ على سنن الرسول ﷺ بأدلَّةِ الرأى والمعقولِ.

ومنها: إيثارُ علم العقل والرأى والقياس على ظواهرِ القرآنِ، وعلى الأخبارِ.

ومنها: إظهارُ الإشاراتِ بالمواجيدِ من غيرِ علومِهَا ولا بيانِ تفصيلها. وفى ذلكَ تحييرٌ للسّامعين، وإضلالٌ للعاملينَ.

وإنَّما كَانَ العلماءُ بِهَذا العلمِ يُظهِرُون علومَ المواجيد، ويُخْفُونَ الإشارةَ بالوَجْد، فيُظهرون للناسِ ما ينفعُ، ويخفونَ ما يضرُّ، ولأنَّ المواجيدَ أحوالُ قلوبهم، فكتمُهَا أفضلُ، وعلومُها أنصبةُ المريدينَ والعاملين، فإظهارُهَا هُو البُغْيَةُ لهم، فأظْهرُوهُ وأخفَوْا وَجْدَهم؛ لأنه سرٌّ لهم فسَلِمُوا من التصنُّع والدعْوى، وأعطوا السَّامعينَ نصيبَهم، ومنعُوهُمْ ما ليسَ لهم، فعَدلُوا فى الوصفينِ معًا، ففُضِّلوا فى الحالينِ جَميعًا. فجُهِلَ هذَا الآنَ فأُظهِرَ ضدُّه، وكان إلى الضررِ أقربَ، ومِنَ السلامةِ أبعدَ[٣].

فمَنْ لم يُحسنِ التفصيل ولم يُرزقِ العبارة، فإنه يَحْسُنُ الصمتُ فهو واسعٌ؛ لأن مَنْ لم يتكلَّمْ بعلمٍ على سُنَّة [ينفع به] فسكوتُه [عن شُبهةٍ لا يوقن الضّرر بها][٤] أقربُ له إلى الله تعالى، فمَثَلُه فى ذلك كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧].

(١) فى (ك): «وروينا كراهية ذلك عن».

(٢) ساقطة من (ط). وفى (ك): «ما يشق عليك».

(٣) سبحان الله!! يتكلم هكذا عن عصره، فكيف بأبى طالب المكى لو أدرك عصرنا هذا؟!

(٤) ما بين المعكفات زيادة من (ك)، وعبارة (ك) بعدها: «أفضلُ قال الله عز وجل».

ومما ظهَر. إظهارُ علوم المعرفة بمعانى الرغبةِ؛ ليتميَّزوا عن الفقراء، تكبُّرًا منهم، فلا يُجْعَلُون مجعلهم، وليُصْرَفْ إليهم من الأسبابِ على قدرِ أُنسِهم[١] وأحوالِهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا، وأضرّه على مريدِى الآخرةِ وألطفه[٢] تَمْويهًا فى الدين.

ومنها: الكلامُ فى التوحيدِ بمخالفةِ علمِ الشرع، وأنَّ الحقيقة تخالفُ العلمَ، والحقيقةُ هى علمٌ، وهى أحدُ طرقاتِ الشريعة، وعلمُ الشرع عنها، فكيفَ تنافيها وهى التى أوجبته، وإنّما هِىَ عزيمته وصنعه[٣]، وعلمُ الظاهرِ هو الرّخصةُ والسَّعة.

فمَنْ تكلَّم فى علمِ الباطِنِ على غيرِ قواعدِ العلمِ الظاهرِ وأصولِهِ فذلك من الإلحادِ فى الشريعةِ والوليجةِ بين الكتابِ والسنة.

وقد قال بعض العارفينَ: نظرتُ إلى هؤلاءِ الشاطحينَ فما وَجَدْتُ إلا جَاهلاً مغرورًا، أو خاسئًا حبورًا، أو مُستظْهِرًا بلا شىء.

ومنها: الكلامُ فى الدينِ بالوساوس والخطراتِ عن غير ردِّ مواجيدها إلى الكتابِ والسُّنَّةِ. والواجبُ معرفةُ تفصيلِها، ونَفْىِ ما لم يَشْهد له الكتابُ والسنّة منها، إذْ فى المواجيدِ ضلالٌ وغرورٌ، وفى المشاهداتِ باطلٌ وزورٌ، معَ دعواهُم المحبةَ، وإنكارهم الصفةَ التى جاءتْ بِهَا السنّة عن غيرِ شهادةِ موصوفٍ، وادعائِهمُ المعرفةَ من غيرِ تعرف معروفٍ.

وممّا أحدثُوا: السجعُ فى الدعاءِ، والتغريبُ فيه، ولم يَرِدِ الكتابُ به، ولا نُقِلَ عن رسولِ الله ﷺ ولا الصحابة، بل كانوا يَنهَوْنَ عنِ الاعتداء فى الدعاء، ويجتنبون مجاوزةَ ما أخبرَ اللهُ تعالى عن أوليائه منَ الأدعيةِ الجامعةِ المختصرةِ المعروفة[٤].

(١) فى (ك): قد تقرأ «لبسهم».
(٢) فى (ك): «وأضرها على مريدى الآخرة وألطفها».
(٣) فى (ط): «عزيمة وضيقة».
(٤) فكيف بزماننا الذى صار فيه الدعاء فنًا وصنعة، لا خشوعًا وتضرُّعًا.

ورُوينا عن رسولِ الله ﷺ: «إيَّاكُم والسجعَ فى الدعاء، حسبُ أحدكم أنْ يقولَ: اللّهمَّ إنى أسألكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليهَا من قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك من النَّارِ وما قرَّبَ إليها من قول وعملٍ». وفى الخبر: «سيأتى قومٌ يعتدُون فى الدعاءِ والطَّهورِ».

وسَمِعَ عبدُ الله بن مُغَفَّل ابنَه يدعُو بدعاءٍ تَعمَّق فيه، فقال: يا بنى، إيّاك والحدثَ والاعتداءَ فى الدعاء.

وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] قيل: فى الدعاء، فالاعتداءُ فى الدعاءِ هو ترْكُ ما أخبرَ الله عزّ وجلّ عن أوليائه الصالحينَ منَ الدعاءِ بالمغفرةِ والرحمةِ والتوبةِ، ومعنى ذلكَ: من الدعاءِ المعروف والقولِ المشهور إلى التنطُّع والتّعميقِ والتغريبِ والتَّدْقيقِ.

ويقال: إن العلماءَ والأبدال لا يزيدُ أحدُهم على سبْعِ كلماتٍ فى الدعاء، ووجدتُ تصديقَ ذلكَ فى الكتابِ: إن الله تعالى ما أخبر عن عباده فى الدعاءِ فى مكانٍ واحد أكثر من سبع دعوات، وهى التى فى آخرِ سورة البقرة، وإلا إنّما يخبر عنهم بالدعوتينِ والثلاثِ والأربعِ إلى الخَمْسِ فى مواضعَ مِنَ الكتابِ متفرقةً.

ومرّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعُو بَسجْعٍ فى دعائه ويتعمَّقُ فقال له: ويلَك، على اللهِ تبالغ، أشهدُ لقد رأيتُ حبيبًا العجَمىَّ[1] يدعُو وما يزيد على قوله: اللّهم اجعلنا جيِّدينَ، اللّهمَّ لا تَفْضَحْنا يومَ القيامةِ، اللهم وفّقنا للخَير. قال: والناسُ يبكونَ من كلِّ ناحيةٍ، وكنا نتعرّفُ إجابةَ دعائه وبركتَه.

وكانَ أبو يزيدَ البسطامىّ يقول: سَلْهُ بلسانِ الحاجةِ لا بلسان الحكمةِ. وقال الحسن: ادْعُ بلسانِ الاستكانةِ والافتقار لا بالفَصاحةِ والانطلاقِ.

ومما أحدثُوه: أخذُ القرآنِ بالإدارة[2] وتنازعُ الاثنين الآية، أو تَلَقّى الرجُلين

(١) فى (ك): «الفارسى» وله ترجمة فى الحلية ٦/ ١٤٩ ـ ١٥٥.

(٢) أى: يديرونه بينهم ويتنازعونه، من قولهم: «أدرت فلانًا على الأمر؛ إذا حاولت إلزامه إياه» اللسان (دور).

للآيتين فى مكان واحد بمنزلة الاختلاس والنُّهبة من غير خشوع للقرآن ولا هيبة. وقراءةُ القرآن تحتاجُ إلى حُزن وسكون وخشوع.

ومن ذلكَ: أخذُ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد؛ لسهو القلب. كما قيل لإبراهيمَ الحربيّ: إنّ فلانًا يأخذُ على الاثنين، فقال: هاه، يحتاجُ اثنانِ أنْ يأخذا على واحد.

ومن البدَع: التلحينُ فى القراءة حتَّى لا تُفهَمَ التلاوةُ، وحتَّى يجاوزَ إعرابَ الكلمة بمدّ المقصور وقصر الممدود، وإدغام المظهر وإظهار المدغم؛ ليستوىَ بذلكَ التلاحُنُ، ولا يبالى باعوجاج الكلم وإحالته عن حقيقته، فهو بدعةٌ ومكروهٌ استماعُهُ. قال بشر بن الحارث: سألتُ ابنَ داود الحربيَّ: أمرُّ بالرجل يقرأ، فأجلسُ إليه. قال: يقولُ: يُطْرِب؟ قلتُ: نعم. قال: لا، هذا قد أظهر بدْعتَه.

ومن ذلك: التلحينُ فى الأذان، وهو من البغي والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذِّنين لابن عمر رضى الله عنهما: إنى لأحبكَ فى الله تعالى، فقال له: لكنِّى أبغضكَ فى الله تعالى، قال: يا أبا عبد الرحمن لم؟[1] قال: لأنّكَ تبغى فى أذانك وتأخذُ عليه أجرًا.

وكان أبو بكر الآجريُّ رحمه الله يقول: خرجتُ من بغدادَ وما يَحِلُّ لى المقامُ بها، قد ابتدعُوا فى كلِّ شيء حتَّى فى قراءة القرآن وفى الأذان. وكانَ يعنى بذلكَ: قراءةَ الإدارة والتلحين. وقَدِمَ علينا مكةَ فى سنة ثلاثين وثلاث مائة[2].

ومن جُمَلِ ما أحدَث الخلفُ فخالفُوا به سَنَنَ السّلف: أنهُمْ شدّدوا فى أشياءَ كانَ السلفُ يسهّلون فيهَا، وسهّلوا أشياءَ كان السَّلَفُ يشدّدون فيها. فمَثَلُهم فى ذلك كالخوارج[3]؛ شدّدوا فى الصغائر من الذنوب، وسهّلوا فى الآثار والسنّة، وفى ترك مذهب الجماعة حتى فارقوهم.

---

(١) فى (ك): «ولِمَ يا سيدى؟».

(٢) كلمة «وثلاث مائة» ساقطة من (ط) وهى من (ك).

(٣) فى (ك): «فما أشبههم فى ذلك إلا بمثل الخوارج».

فممّا شدَّدَ فيه الخلفُ مما كان السلف يسهِّلونه كَتْبَ الأحاديثِ من أنواعِ طُرقها، وتتبعِ الغرائبِ من طرقاتِهَا، وتحرِّى الألفاظِ فيها، وقد قال ابن عون: أدركتُ ثلاثةً يرخِّصون فى المعَانى: إبراهيمَ، والشَّعبىَّ، والحسنَ، رحمهم الله تعالى.

وعن جماعةٍ من علماء السلفِ والصحابةِ التوسعةُ فى معانى الأحاديثِ، وإن لم يؤدِّ ألفاظَها.

ومن ذلكَ: تجريدُ الحروفِ، وتحرِّى المقرئِ الواحدِ فى جميعِ اختيارِه، حتَّى كأنه فُرِضَ عليه.

ومن ذلكَ: التدقيقُ فى القياسِ والنظرِ، والتبحُّرِ فى علومِ النحوِ والعربيةِ. كما قال إبراهيم بنُ أدهمَ رحمه الله تعالى: أعربْنا فى الكلامِ فلم نلحنْ ولحنّا فى الأعمال، فيا ليتَنا لحنَّا فى الكلامِ وأعربْنا فى الأعمالِ.

وذُكِرت «العربية»[1] عند القاسمِ بن المخيمرَةِ فقال: أولها كِبْرٌ وآخرها بغْىٌ. وقد قالَ بعضُ السلفِ: النحوُ يُذْهِبُ الخشوعَ من القلبِ. وقال آخرُ: مَنْ أحبَّ أن يزدرىَ الناسَ كلَّهم فليتعلَّم العربيةَ[2].

وشدّدوا فى الطهارةِ بالماء، وتنظيفِ الثيابِ، وكثرةِ غسلِهَا مِنْ عرقِ الجنُبِ، ولُبْسِ الحائضِ، ومنْ أرواثِ ما يُؤكَلُ لحمُه وأبواله، وغسلِ اليسيرِ من الدمِ، ونحو ذلك. وكان السلفُ يُرخِّصُونَ فى هذا كلّه.

ومما سهّلوه ممَّا كان السلفُ يشدِّدون فيه: أمرُ المكاسبِ، وتَرْكُ التحرِّى فيَها، والكلامُ فيها لا يَعْنِى، والخوْضُ فى الباطلِ، والغيبةُ والنميمةُ والاستمَاعُ إليهما، والعقدُ على البلاغاتِ[3]، وسُوءُ الظنِّ لأجلهَا، وهو اشتراكٌ فى النميمة [واستماعٌ إليها][4]. وكلُّ بلاغةٍ تزيدُ وتنقصُ: إن كان شرًا ازددتَ فيه، وإن كانَ خيرًا نقصتَ منهُ.

---

(١) يقصد «علم العربية».

(٢) ليس هذا الكلام على إطلاقه عندهم، بل هو مرتبط بأحوال ومناسبات خاصة بهم.

(٣) فى (ك): «والعمل على البلايات، وهو اشتراك... إلخ».

(٤) زيادة من (ك).

وسهّلوا فى النظرِ إلى الزورِ واللهوِ ومجالسةِ البطّالينَ، والمشْىِ فى أسبابِ الهوى، والتعصبِ، وشدةِ الحرصِ على الدنيا؛وهذا كلُّه كان السّلفُ يشدِّدون فيه.

ومما أحدثوا: دخولُ النساءِ الحمامَ من غيرِ ضرورة، ودخولُ الرجلِ بغير مِئزرٍ، وهو فسقٌ. وسُئِلَ إبراهيمُ الحربىُّ رحمه الله تعالى عمَّنْ يشربُ النبيذَ ولا يَسْكَر أيُصلَّى خلفه؟ قال: نعم. قيل: فمَنْ دخلَ الحمامَ بغير مِئزرٍ، فقال: لا يُصلَّى خلفه. هذا، لأنَّ شُربَ النبيذِ يُختلَفُ فيهِ إذا لم يُسكرْ، ودخولُ الحمامِ بغير مئزرٍ محرمٌ بإجماعٍ. وكان بعضُ العلماءِ يقول: يحتاجُ داخلُ الحمام إلى مئزرين: مئزرٍ لوجهِه، ومِئزرٍ لعورتهِ، وإلا لم يَسْلَمْ فى دخولهِ. وكان ابنُ عمرَ يقول: الحمام من النعيم الذى أحدثُوه.

ومن المنكرِ فى الحمامِ تولِّى القيِّم لعورةِ الرجلِ المسلم فى الإطلاء بالنُّورةَ(١).

وقد كان من هَدْى العلماء فى قعودهم أن يجتمعَ أحدُهم فى جِلْستِه فيَنصبُ ركبتيْه، ومنهم من يقعدُ على قدَمَيه ويضعُ مِرفقيهِ علَى ركبتيهِ. كذلك كانَ شمائلُ كلٍّ من تكلَّمَ فى هذا العلمِ خاصةً من عهدِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومن زمنِ الحسنِ البصرى؛ وهو أوّل مَنْ أظهرَ هذا العلم، وفَتَقَ الألسنَ به، إلى وقتِ أبى القاسم الجنيدِ، قبل أن تظهرَ الكراسىُّ.

وكذلك رُوِى عن رسولِ الله ﷺ: «أنه كانَ يقعد القُرفُصاءَ ويَحتْبِى بيديه». وفى رواية أخرى: «أنَّهُ كان يَقعدُ على قدميه ويجعلُ مِرفقَيْهِ عَلَى ركبتيهِ».

وأولُ مَنْ قعد على كرسىٍّ من أهلِ هذا العلمِ يحيى بنُ معاذ رحمه الله تعالى بمصر، وتبعَهُ أبو حمزةَ ببغداد، فعابَ الأشياخُ عليهما ذلك، ولم يكن ذلكَ من سيرةِ العارفين الذينَ يتكلَّمُون فى علمِ المعرفةِ واليقين، إنما كان يجلسُ متربِّعًا النحويُّو ، واللغويُّونَ وأبناءُ الدنيا مِنَ العلماءِ المفتين، وهى جِلْسَةُ المتكبرين. ومن التواضعِ الاجتماعُ فى الجِلْسَةِ(٢).

---

(١) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(٢) فى (ك): «فى الحَلْقة».

ذكر تفصيل العلوم: معروفها ومنكرها، قديمها ومحدثها

اعلَمْ أن العلوم تسعةٌ: أربعةٌ منها سنّة معروفة من الصحابةِ والتابعينَ، وخمسةٌ مُحْدَثَةٌ لم تكن تُعرف فيما سَلَف.

فأما الأربعة المعروفة: فعلمُ الإيمانِ، وعلمُ القرآن، وعلمُ السنن والآثارِ، وعلمُ الفتَاوَى والأحكام.

وأما الخمسة المحدَثة: فالنحوُ والعَروضُ، وعلمُ المقاييس، والجدلُ فى الفقه، وعلمُ المعقولِ بالنظر، وعلم عللِ الحديثِ وتطريقِ الطرقاتِ فيه وتعليلِ الضعفاءِ وتضعيفِ النَّقَلَةِ للآثارِ، فهذا العلمُ من المحدَثِ إلا أنه عِلْمٌ لأهلهِ فيسمعُه أصحابُه منهم.

وقد كانُوا يَرَوْنَ القَصصَ بدعةً ويَنهوْنَ عنهُ ويكرهُون مجالسةَ القُصَّاصِ. قال بعضُ العلماء: نِعْمَ الرجلُ فلانٌ لولا أنه يقصُّ.

وقال بعضُ هذه الطائفة: مَثَلُ أصحابِ الحكاياتِ فى أهلِ المعرفةِ مَثَلُ القصَّاص فى الفقهاءِ.

وقال آخر: مَثَلُ القصَّاص فى العلماءِ مَثَلُ أهلِ السوادِ فى أهل المدنِ.

فأمّا أكلُ الدنيا بالدينِ، وأخذُهَا على الصلاح، وبيعُ العلمِ بالدنيا، والتصنُّعِ والتزيُّنِ للعموم ـ فمن قبيحِ ما أُحدِثَ. وهو أظهرُ من أن يُستدل[1] على فسادِه عند من عَرَفَ ظاهرَ العلمِ. وقد سمَّى هؤلاء فى زماننا هذا الجاهلُون بالعلمِ علماءَ، وجعلهم الناقصُونَ عن الفضل فضلاء؛ لقلّةِ معرفتهم بطريقِ المتقدمينَ، وعدمِ بصيرتِهم بحقيقةِ علمِ الدين.

واعلمْ أن الكلامَ ينقسمُ عندنا سبعةَ أقسامٍ: العلمُ منه قسمٌ واحدٌ، وسائرُ الستةِ لغوٌ مطَّرِحٌ يلتقطُه مَنْ لا يَعْرِفه، ولا يفرقُ بين العلمِ والجهلِ، والعربُ تقول:

(١) فى (ط): «من أن يدل».

«لكلِّ ساقطة لاقطةٌ»(١)، و«لكلِّ قائلة ناقلةٌ». فالستَّةُ: إفكٌ، وسَفَهٌ، وخطأٌ، وظَنٌّ، وزخرفٌ، ووَسْوسة. فهذه أسماؤها عند العلماء، يفصِّلون ذلك بما فصَّل اللهُ تعالى لهم من بيانه، واستحفَظهُمْ من كتابه، وجعلهم شهداءَ على دينه وعباده.

فالقسمُ السابعُ من الكلامِ هو مَا عدا هذه الستة، ولم يقعْ عليه اسمٌ منها مذمومٌ، فهو علمٌ، وهو نَصُّ القرآنِ والسنةِ، أو ما دلاَّ عليه، واستُنبِطَ منهما، أو وُجِدَ فيهِمَا اسمُهُ ومَعْناهُ مِنْ قولٍ وفعلٍ.

والتأويلُ ـ إذا لم يخرج عن الإجماع ـ داخلٌ فى العلمِ والاستنباط، إذا كان مُستودَعًا فى الكتاب، يَشهدُ له المجمل ولا ينافيه النصّ، فهو علم. وقد كان ابن مسعودٍ رضى الله عنه يقول: أنتم اليومَ فى زمانِ الهوَى فيه تابعٌ للعلمِ، وسيأتى عليكم زمانٌ يكونُ العلمُ فيه تابعًا للهوى.

وقد جمعَ اللهُ تعالى بين رَوْنَقِ العقلِ ومُتعة الدنيا بتسمية الزُّخرفِ فقال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤ ـ ٣٥]، وكما قال: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فذَهابُ الجاهلِ بالاستحسانِ لزُخْرفِ القولِ منَ المموَّهِ من عُلماءِ الدّنيا كمتعةِ الجاهلِ مِن أبناءِ الدنيا بزخرفِ الذهَب، ذاهبًا عن حقيقةِ الأمر، والزخرفُ ما يُموَّهُ به على الذهبِ، فَيُشَبَّهُ به، يحسبُهُ الجاهلُ والصبىُّ عينَ الذهب. كذلك الزخرفُ من القولِ: ما يُموَّه ويُشبَّه على العلمِ، يحسبُه المستمعُ من الجهّال عِلْمًا، فلذلك جمع بينهمَا فى التسمية الزخرف.

وقد قيل: إنّ الزخرفَ هو الذهب(٢)، فعلَى هذا شبَّه قولَ الغُرورِ بالذّهب، الذى يذهبُ بقاؤه وتقلُّ حقيقته عند الربانيّين وأهل الحقيقةِ الزاهدينَ، إذ شَبَّهَهُ الأنبياءُ والصديقُون بالحجرِ والمدَرِ.

وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضى الله عنه يقول: تركُوا العلمَ وأقبلُوا على

(١) من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال، للميدانى، ٢/ ٩٤، وجمهرة الأمثال، للعسكرى، ٢/ ٢٠٧، ومعناه: «لكل كلمة رديئة دنيئة متحفِّظ» ودخلت الهاء على «لاقطة» ليصح الازدواج.

(٢) هذا قول ابن عباس وغيره، انظر: تفسير القرطبى ١٦/ ٨٧.

الغراسِ. ما أقلَّ العلمَ فيهمْ! والله المستعان.

وقال الإمام مالك بنُ أنس رضى الله عنه: لم يكنِ الناسُ ـ فيما مضى ـ يَسألونَ عن هذه الأمورِ، كما يَسأل الناسُ اليومَ، ولم يكنِ العلماءُ يقولون حرام ولا حلال فى أكثرِ الأمورِ، أدركتُهُم يقولون: مستحَبٌّ ومكروه. وكان مالكٌ كثيرَ التوقُّفِ فى الأجوبةِ إذَا سُئِل، ويُكثر أن يقول: لا أدرى! سَلْ غيرى.

وقال رجلٌ لعبد الرحمنِ بن مهدى: ألاَ ترى إلى قولِ فلانٍ فى العلم: حلال وحرام، وقَطْعه فى الأمور بعلمه ـ يعنى: رجُلاً من أهل الرأى ـ وإلى قولِ مالك إذا سُئِلَ: أحْسَبُ [أحْسَبُ][1]؟ فقال عبد الرحمن: ويلك! قولُ مالكٍ أحسبُ أحسبُ أحبُّ إلىّ من قولِ فلان: أشهَدُ أشهدُ.

وكان هشامُ بنُ عروةَ يقول: لا تسألُوهم اليومَ عمَّا أحدَثُوا، فإنَّهم قد أعدُّوا له جَوَابًا، ولكنِ اسْألُوهم عنِ السننِ فإنّهم لا يعرفُونها.

وكان الشَّعبىُّ رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناسُ من الرأى والهوى يقول: لقد كان القعودُ فى هذا المسجدِ أحبَّ إلىَّ مما يُعْدَلُ به، فمُذْ صارَ فيه هؤلاء المراؤون فقد بغَّضوا إلىَّ الجلوسَ فيه، ولأن أقعُد على مزبلةٍ أحبُّ إلىَّ من أن أجلسَ فيه. وكان يقول: ما حدّثوك عن السننِ والآثارِ فخُذْ به، وما حدَّثوكَ عمَّا أحدثُوا من رأيهمْ فامخَطْ عليه. وقد قال مرةً: فبُلْ عليه.

وقد كان السلفُ يستحبُّونَ العىَّ والبَلَه عن علومِ المعقولِ.

وقد جعلهُ رسولُ الله ﷺ من الإيمان؛ إذ قَرنهُ بالحياءِ فقال: «الحياءُ والعىُّ شعبتانِ من الإيمانِ، والبذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاقِ».

وقال ﷺ: «أبغضُ الخلقِ إلى الله عزّ وجلّ البليغُ الذى يتخلَّلُ الكلامَ بلسانه كمَا تتخلَّلُ الباقرةُ الخَلَى بلسانها» يعنى: الحشيش الرطب. وقال فى حديث آخر: «العىُّ عىُّ اللسانِ لا عىُّ القلبِ». وقال: «إنَّ الله عزّ وجلّ كَرِهَ لكمُ البيانَ كلَّ البيانِ».

(١) ساقطة من (ط)

فَصَار الفقهُ إنَّما هُوَ فقهُ القلب عن الربِّ سبحانه وتعالى، وصار فقه اللسان بالبيان إنّما هو عى القلبِ عنِ الشهادةِ والإيقانِ. وعىُّ اللسانِ وطولُ الصمْتِ الذى كان يستحبهُ السلفُ هو اليومَ عيبٌ.

ومن المتكَلمينَ مَنْ لا يعرفُ أن كلامَ البدع وعلمَ المنافقينَ الذى ذمّهُ القدماءُ هو اليوم سُنّة، وأن أهلَ النطقِ به هم العلماءُ اليومَ. ولقد صارَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا، وصارتِ السنّة بدعةً والبدعةُ سنّةً. وكذلك جاءتْ به الأخبارُ فى وصف علماء آخرِ الزمان. وفى الخبر المشهور: «إنَّ الله تعالى يبغضُ الثّرثارينَ المتشدِّقين». فمَنْ غُلِبَ عليه هذا الوصفُ فكان متشدِّقًا بليغًا فى علمِ الرأى والمعقول، عىَّ القلبِ عن مشاهدةِ اليقينِ وعلمِ الإيمانِ، كان إلى النفاقِ أقربَ، ومنْ حقيقةِ الإيمان أبعدَ.

وقد كان أبو سليمان الدارانى يقول: لا ينبغى لمن أُلهِمَ شيئًا من الخيراتِ أن يُعَلِّمه[1] حتى يَسمعَ به فى الأثر، فيحمدُ اللهَ تعالى إذا وافقَ مَا فى نفسِه.

وقال بعضُ العارفينَ: ما قَبلتُ خَاطِرًا من قلبى حتَّى يقيمَ لِى شاهِدَىْ عدلٍ من كتابٍ وسنةٍ.

وكان إمامنا أبو محمدٍ سهل رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يكونَ فيه هذه الأربع: أداءُ الفرائضِ بالسنّة، وأكلُ الحلالِ بالورعِ، واجتنابُ النهى من الظاهرِ والباطنِ، والصبرُ على ذلك حتَّى الممات.

وقد كانوا يعيبونَ على مَنْ تكلَّمَ بعدَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ بغيرِ ذِكْرِ الله تعالى، وكانوا يُخْرِجُونَ المتحدِّثينَ من المساجدِ فلا يبقى فيه إلا مُصَلٍّ أو ذاكرٌ لله تعالى.

وقد كان السلفُ يَستعظِمُونَ يسيرَ الحديثِ فى الدينِ ودقائقَ البدعِ فى الإسلامِ؛ لِعظَمِ الإيمانِ والسنّةِ فى قلوبِهم، ولمعرفتِهمْ بحقيقةِ المعروف. قال عبدُ الله بن مغفَّلٍ لابنه، وقد سمعه يقرأ خلف الإمام: يا بنىَّ، إياك والحدَثَ إيَّاكَ والحدَثَ.

(١) فى (ط): «يعمله» وأثبت ما فى (ك).

وقال سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضى الله عنه لابنه عمرُ، وقد سمعه يَسْجع فى كلامه: هذا الذى يُبغِّضكَ إلىَّ، لا قضيتُ حاجتَكَ أبدًا ـ وكان قد جاءهُ يسألهُ حاجةً لهُ ـ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أُوتِىَ امرؤٌ شرًا مِنْ طَلاَقةٍ فى لسانه».

وقال ﷺ لابْنِ رواحةَ حينَ سمعه سَجَعَ فَوالَى بين ثلاث، قال: «إياك والسجعَ يا ابن رواحة». فكأن السجعَ ما زادَ على كلمتين. وكذلك قالَ رسولُ الله ﷺ للرجُل الذى أمَرهُ بديَةِ الجنينِ، لما قال: كيفَ نَدى من لا شَرِبَ ولا أكَلَ ولا صَاحَ ولا استهلَّ، فمِثْلُ هذا يُطَلُّ[1]. فقال رسول الله ﷺ: «أسجعٌ كسجع الأعراب؟».

ورُوينا أنَّ مروانَ لما أحدثَ المنبر فى صلاةِ العيدِ عند المصلَّى، قام إليه أبو سعيدٍ الخدرىّ فقالَ: يا مروانُ ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست بدعةً، هى خيرٌ مما تعلمُ. إنّ الناسَ قد كثرُوا فأردتُ أن يبلُغهم الصوتُ. قال أبو سعيد رضى الله عنه: لا تأتونَ بخيرٍ مما أعلمُ أبدًا، والله لا صلَّيتُ وراءك اليوم. فانصرفَ ولم يُصلِّ معهُ صلاة العيد.

فالخطبة على منبرٍ فى صلاةِ العيدِ وخطبةُ الاستسقاء بدعةٌ. وكان عليه الصلاة والسلام يخطُب فيهما على الأرضِ متوكئًا على قوسٍ أوْ عصًا.

ورُوِىَ: «أنَّ عمرَ رضى الله عنه أخَّر صلاة المغرب ليلةً حتى طلع نجمٌ فاعتق رقبةً». وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضًا فأعتق رقبةً، استنَانًا بعُمرَ وهو جَدُّه لأمِّه. وروينا عَنِ ابنِ عمرَ رضى الله عنهما «أنه أخّر صلاةَ المغرب حتَّى طلَعَ كَوكبانِ، فأعتقَ رقبتين». وفى الخبرَ: «لا تزال أمتى على مُسْكَةٍ[2] مِنْ دينها ما لم يؤخِّروا صلاة المغربِ إلى اشتباك النجوم، تشبُّهًا باليهوديةِ، ولم يؤخِّروا صلاة الصبحِ إلى افتراقِ النجومِ، تشبُّهًا بالنصرانية».

وقال سفيانُ الثورىُّ رحمه الله ويوسفُ بن أسباط: لا تقلِّدْ دِينَك مَنْ لا دِينَ له. وقالَ وكيعٌ: لأنْ أزنىَ أحبُّ إلىَّ من أن أسألَ مبتدِعًا عن دينى. وكان الإمامُ

(١) يُطَلّ: يُنقص من حقه.
(٢) المسكة: ما يُتمسَّك به، أو ما يُتبلَّغ به.

أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى قد أكثرَ عنْ عُبيد الله بن موسَى العَبْسِيّ، ثم بلغَهُ عنه أدنَى بدعة، قيل: إنهُ كانَ يُقدِّمُ عليًا علىَ عثمانَ، وقيل: بل ذكرَ معاويةَ بسوء. فانصرفَ أحمدُ ومزّقَ جميعَ ما حَملَ عنهُ ولم يحدِّثْ عنه شيئًا. وقيل له مرَّة: يَا أبا عَبْدِ الله، أوَكيعٌ أشبهُ بالسلفِ أم عبيدُ الله؟ فقال: وكيعٌ وإن زنَى.

وحدثُونا عن إبراهيم الحربيِّ قالَ: كتبتُ عن عليّ بنِ المدينى رضى الله عنهُ جُملاً لله تعالى على أن لا أُحدِّثَ عنه بحرف. قيل: ولِمَ يا أبا إسحاق؟ فذكرَ صلاتَهُ خلفَ مبتدعٍ. وكان رحمه الله تعالى يقول: صحبتُ الفقهاءَ وأصحابَ الحديثِ وأهلَ العربيةِ واللغةِ سبعين سنةً، ما سمعتُ هذه المسائلَ التى أُحدِثَتْ فى هذا الوقتِ من أحدٍ منهم قط. يعنى: الاسمَ والمسمَّى، ونحو ذلك. وقال: وأُحرِّج علىَ مَنْ كانَ من أهلِ الكلامِ والجدلِ أن يحضرَ مجلسِى، أوْ يسألنى عن شيءٍ، فإنه لا علمَ لى بالكلام، ولا أنا أحسنُه ولا أقول بأهله، ولو عرفتُ أحدًا منهم ما كلَّمتُه، ولا أجبتُه عن شيءٍ.

وهَجَرَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله تعالى أبا ثورٍ صاحبَ الشافعىّ لما سُئِلَ عن معنَى قول النبى ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته» قال: إن الهاء عائدة على آدم، فغَضِب وقال: ويلهُ، وأىُّ صورة كانتْ لآدمَ يخلقُهُ عَلَيْهَا؟ ويلهُ، يقول: إن الله تعالى خلَقَ على مثالٍ، فأىُّ شيءٍ يَعْملُ فى الحديث المفسَّر: «إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن»؟ فبلغ ذلك أبا ثورٍ فجاءه واعتذر وحَلَفَ أنه ما قلتُ عن اعتقادٍ، وإنَّما هُو رأى رأيتُهُ، والقولَ ما قلتَ، وهو مذهبى.

وهَجَرَ أيضًا حارثًا المحاسبى رحمه الله تعالى فى ردِّه على المبتدعة ـ وكان من أهل السنة ـ فقال: أين تردُّ عليهم وقد حكيتَ قولهم؟ وأيضًا فإنكَ تحملُهم على التفكُّر والرأى فيما قلتَ، فيكونَ سببًا لردِّ الحقِّ بالباطلِ. وهَجَرَ أيضًا يحيى بن معين فى كلمةٍ تكلَّمَ بها، وهو قوله: لو أعطانى الشيطانُ شيئًا أخذتُه.

وقال مالكُ بنُ أنس رضى الله عنه: ليس من السنّة أن تجادلَ عن السنّة، ولكنْ تخبرَ بها، فإنْ قُبِل منك وإلا فاسكتْ.

وقيل لعبدِ الرحمنِ بن مهدى رضى الله عنه: إنَّ فلانًا يردّ على المبتدعَةِ، فقال:

بكتابِ اللهِ تعالى وسنةِ رسولهِ ﷺ؟ قالوا: لا، بلْ بالمعقولِ. قال: بئسما صنع، ردَّ بِدْعةً ببدعةٍ.

وحدَّثَ زيدُ بن أحزمَ عن وهبِ بن جريرٍ قال: سَمِعتُ شعبةَ رحمه الله تعالى يقول: أتيت الحارثَ العكليَّ فقلت: ما معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «إذا تَبِع أحدُكم جنازةً فلا يجلسْ حتى توضع»؟ قال: أرأيتَ إن جئنا ولم يُحْفَرْ له ينبغى لنا أن نقومَ قيامًا؟ فحيثُ قالَ لى: أرأيت، تركتُه.

وروى محمودُ بنُ غيلان أيضًا، عن وهب أيضًا، عن شعبة قال: «أتيتُ المنهالَ ابنَ عَمْرٍو أسألُه عن حديثٍ، فسمعتُ من منزلهِ صوتَ طنبورٍ[1]، فرجعتُ ولم أسألْهُ، ثُمَّ ندمتُ بعد ذلك فقلتُ: هلا سألته فعسَى كانَ لا يعلمُ به.

ومما أحدثُوا: البيعُ والشراءُ على الطريقِ، وكان الوَرِعون لا يشترون شيئًا ممن قعَد يَبِيعه على طريقٍ.

وكذلك إخراجُ الرَّواشِنِ من البيوتِ، وتقديمُ العضَايد بين يدى الحوانيتِ إلى الطريقِ مكروهٌ[2].

ومما كرِهَهُ أهلُ الورعِ: البيعُ والشراءُ من الصبيانِ؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ، وكلامُهم غَيرُ مقبول.

وحُدِّثْتُ عن أبى بكر المروزىِّ أن شيخًا كان يجالسُ الإمامَ أحمدَ بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيبةٍ، فكانَ أحمدُ يقبلُ عليهِ ويكرمُه، فبلغَهُ عنه أنه طيَّنَ حائطَ

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو.

(٢) عبارة (ك): «وتقديم العضايد فى الأسواق إلى الطرقات مكروهة». والروشن، كما فى اللسان (رشن): «الرَّفُّ. والروشن: الكُوَّة». وفى كتاب المغنى لابن قدامة (٧/ ٣١)، نشرة هجر، ما نصه: «ولا يجوز أن يشرع إلى طريقٍ نافذٍ جناحًا؛ وهو الرَّوشَنُ، يكون على أطراف خشبة مدفونة فى الحائط، وأطرافها خارجةٌ فى الطريق، سواء كان ذلك يضرُّ فى العادة أو لا يضرُّ».
والعضايد: مثله «وهو ما شُدَّ من حَوالى البناء كالصَّفائح المنصوبة حول شفير الحَوض».
وفى المغنى ثَمَّ جملة طيبة من هذه الآداب الإسلامية التى لا غنى عنها للمجتمع مما ذكره أبو طالب هنا، راجعه ثَمَّ، كتاب الصُّلح ٧/ ٥ ـ ٥٥.

داره من خارج. قال: فأعرضَ عنهُ فى المجلسِ، فاستنكرَ الشيخُ ذلك فقال: يا أبا عبد الله، هل بلغكَ عنِّى حدثٌ أحدثتُه؟ قال: نعم طيَّنتَ حائطَكَ من خارج. قال: أوَ لا يَجُوز؟ قال: لا؛ لأنَّكَ قد أخذتَ مِنْ طَرِيقِ المسلمينَ أنمُلةً. قال: فكيف أصنعُ؟ قال: إمَّا أن تَكشُطَ ما طيَّنته وإمَّا أن تهدمَ الحائطَ وتؤخِّرَهُ إلى وراء مقدارَ أُصبعٍ ثُمَّ تطينهُ مِنْ خَارجٍ. قال: فهدَمَ الرجلُ الحائط، وأخَّرَهُ أصبُعًا، ثم طيَّنه من خارج. قال: فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كَرِهَهُ السلفُ طَرْحُ السَّنَّوْر والدّابةِ على المزابلِ فى الطرقات، فيتأذَّى المسلمون بروائحِ ذلك. وكان شُرَيحٌ وغيره إذا ماتَ لهم سنّور دفنوهَا فى دُورهم.

ومثله إخراجُ الميازيبِ وصبُّها إلى الطرقات. وكان الإمامُ أحمد بنُ حنبل رحمه الله وأهلُ الورعِ يجعلون ميازيبَهمْ إلى داخلِ دُورِهمْ.

وقال إبراهيم النخعى رحمه الله: كانَ أحدُهُمْ يكذبُ مرتَّينِ ولا يَشْعُر، يقول لشيءٍ لا شيءَ، ولشيءٍ ليس بشيءٍ[1]. يعنى: قولُ الناسِ للشيءِ اليسيرِ الذى لا يوصفُ بكثيرٍ: لا شيء، فاستعظمَ هذا ورآه كذبًا مرتين.

وروينا عن عمر رضى الله عنه أنَّه قالَ لعوانة: كنتُ أرْثى لك من العمَى فصرتُ الآن أغبطك به. قال: وكيف؟ قال: صِرْتَ لا ترى أبا الصفرى بعينيكَ. مبتدع كانَ بالمدينة.

وقيل لقتادة: تَودُّ لو أنكَ بصير؟ فقال: لا، عَلى مَن كُنتُ أفتح عينىَّ؟ بلْ لَو كانَ فى وقتِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ كنتُ أنظرُ إليهمْ.

وحدَّثونا عن الفضْلِ بنِ مهرانَ قال: قلتُ ليَحيى بن معينٍ: أخ لى يقعدُ إلى القُصَّاصِ، فقال: انهَهُ، فقلت: لا يَقبلُ. قال: عِظْهُ، قلت: لا يقبل أأهجره؟ قال: نعم. قال: فأتيتُ الإمامَ أحمد بن حنبلٍ فذكرتُ له نحوَ ذلكَ فقال: قل لهُ يقرأ فى المصحف ويذكر اللهَ تعالى فى نفسه، ويطلبُ حديثَ رسول الله ﷺ. قلتُ: فإن لم يفعلْ، قال: بلى، إن شاءَ اللهُ تعالى، فإن هذا الاجتمَاعَ محدثٌ.

(١) فى (ط): «يقول: لا شيء إلا شيء، ليس بشيء» وأثبت ما فى (ك).

قلت: فإن لم يقبلْ أأهجره؟ فتبسَّم وَسكتَ. وَسأل رجلٌ بشرَ بنَ الحارث رحمه الله تعالى عن مَسألة من علمِ القلوبِ فتوقَّف، ثمّ أجابهُ. ثمَّ سألهُ مسألةً أخرَى مِنْ علمِ المعاملاتِ، فسكتَ، ونظرَ إليه ثم قال: مَنْ تجالسُ مِنَ الناسِ؟ فقال: منصورَ بن عمارٍ، وابنَ السماك. فقال: ألا تستحى تسألنا عن علمِ القلوبِ ثم تجالسُ القصّاصَ؟ قال: وأعرَضَ عنهُ حتىً قلنا له: يا أبا نصر إنه لا بأسَ به، إنّه من أهلِ السنّة.

وقد كانُوا يكرهونَ الصلاةَ فى المقصورة، ويَروْنَ أنها أولُ بدعةٍ أُحدثتْ فى المساجِدِ. ويكرهُون تزويقَ المساجدِ وكذا القبْلة بالزخرف، وتحليةَ المصاحف، وهذا من البدع. وفى الخبر: «إذا ما زخرفتمْ مساجدَكم، وحلَّيتمْ مصاحفكم، فالدَّبارُ[1] عليكُمْ».

وقد كانوا يكرهون كثرةَ المساجِد فى المحلّة الواحدة. وروى أنَّ أنسَ بن مالك رضى الله عنهُمَا لما دخَل البصرةَ جَعَل كلَّما خطَا خطوتينِ رأى مسجِدًا. فقال: ما هَذه البدعة؟ لما كثُرت المساجد قلَّ المصلُّونَ. أشهد لقد كانت القبيلة بأسرهَا ليس فيها إلا مسجدٌ واحدٌ، وكان أهلُ القبائلِ يَتبانَوْنَ المسجِدَ الواحِدَ فى الحىِّ من الأحياءِ.

واختلفوا فى أيِّهما يُصلَّى إذا اتفق مسجدان فى محلة. فمنهُمْ مَنْ قال: فى أقدمِهما. وإليه ذهبَ أنسُ بنُ مالكٍ وغيرُه من الصحابة. قال: وكانُوا يجاوزونَ المساجدَ المُحدَثة إلى المساجِد العُتُقِ. وكان الحسنُ يقول: يُصلَّى فى أقربِهما منه.

ويقال: أولُ ما حدث من البدعِ أربعٌ: الموائدُ، والمناخلُ، والأشنانُ، والشَّبعُ.

وكانوا يكرهُونَ أن تكونَ أوانى البيتِ غيرَ الخزفِ، ولا يتوضأ أهلُ الورعِ فى آنية الصُّفْرِ والنُّحاس. قالَ الجنيد: قال لى سَرِىٌّ السقطىُّ: اجتهدْ أن لا تَستعملَ مِنْ آنيةِ بيتكَ إلا جنسَك. يعنى من الطين. ويقال: لا حسابَ عليه.

(١) أى الهلاك.

ومما كَرِهَهُ السلفُ: تشييدُ البناءِ بالجصِ والآجُرِّ. يقال: أول من طبخ الطينَ هامانُ، أمرهُ به فرعونُ. ويقال: هو بناء الجبابرةِ.

وكرهوا النقوش والتزويقَ فى السقوفِ والأبوابِ، وكانُوا يغضُّونَ منَ النَّظرِ إلى ذلك. وغابَ الأحنفُ بن قيسٍ غَيبةً، فرجعَ وقد خَضّروا سقفَ بيتِه وصفّروه، فلمَّا نظرَ إليه خرَجَ من منزله وحلَف أن لا يدخله حتَّى يقلعُوا ذلكَ منه، ويُعيدوه كما كانَ.

وقال يحيى بن معاذ من أصحابِ الثوريِّ رحمه الله: كنتُ أمشى معَ الثوريّ فى طريقٍ فمررنا ببابٍ منقوشٍ مزوّقٍ فنظرتُ إليه، فجذبَنى سفيانُ حتَّى جُزْتُ، فقلت: ما تَكرهُ من النظرِ إلى هذا؟ فقال: إنمَا بنَوْهُ ليُنْظَر إليه، ولَوْ كان كلُّ مَنْ مرَّ به لا ينظُر إليه ما بَنَوْه. فكأنه خَشِى أن يكون بنظرِه إليه مُعاوِنًا له على بنائِه.

ومما أحدَثَ الناسُ مما كانُوا يكرهُونهَ: الثيابُ الرقاقُ، مثلُ القَصَبِ ورقيقُ بزِّ مصرَ للنساءِ والرجال، وهو للنساء أكرهُ وأغلظُ، وكانُوا يقولون: الثيابُ الرّقاقُ لباسُ الفسَّاقِ، ومَنْ رقَّ ثوبُه رقَّ دينُه. ويقولونُ: أول النُّسكِ الزيُّ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: لا يشبهُ الزيُّ الزيَّ حتَّى يشبهَ القلبُ القلبَ.

وخطبَ بشرُ بنُ مروانَ وعليه ثوبٌ رقيقٌ، فجعلَ رافعُ بن خديج رضى الله عنه يهزأ بهِ ويقول: انظروا إلى أميركم يعظُ الناسَ وعليه ثيابُ الفسّاق.

ولما جاء عبد الله بنُ عامر بن ربيعة فى بزَّته إلى أبى ذَرٍّ رضى الله عنه وسأله عن الزهد، وأخَذَ يتكلمُ فيهِ، فجعَل أبو ذرٍّ يُضَرِّطُ به فى كفِّه، ثم أعرضَ عنهُ ولم يكلِّمْه. فغضبَ ابنُ عامرٍ، وكان قُرَشيًا شَرِيفًا، وشكاهُ إلى ابنِ عمر رضى الله عنهُما، فقال له: أنت فعلْتَ بنفسِكَ، تأتى أبا ذرٍّ فى هذه الثيابِ وتسأله عن الزهدِ.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ وقد وصَف نساءً يكنَّ فى آخرِ الزمانِ فقال: «كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهنَّ أمثالُ أسنمةِ البقر ـ يعنى المعاجر والأكوار ـ لا يَجِدْنَ رائحةَ الجنةِ».

وكان ابنُ عباسٍ يفسر التبرّج أنه لِبسُ ما رقَّ من الثياب، وقال فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣] قال: كانت المرأة تلبسُ ثيابًا قيمتها كذا وكذا، لا توارى لها عورةً مما لا يجُوز فيه الصلاةُ؛ لأنه يَصِفُ أوْ يشفُّ، فمكروهٌ لُبْسُهُ. وإنَّما كَانَتْ ثيابُ السَّلَفِ: السنبلانى، والقَطَوانى، وعَصْبَ اليمنِ، ومعافرىَّ مصر، والقُباطىَّ؛ مثل كسوةِ الكعبة، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيسَ الحضرميَّة؛ وهذه كلهَا غلاظٌ كثيفة. وكانت الأثمانُ من خمسةِ دراهمَ إلى ثلاثين ردهمًا وما بين ذلكَ. ثم أحدثَ الناسُ الثيابَ الرقاقَ من كتانِ مصر، وقطن خراسانَ. وكان طولُ مئزرِ رسول الله ﷺ أربعةَ أذرعٍ ونصفًا، وثمنُهُ إلى الأربعةِ والخمسةِ. وكانت أثمانُ ثيابهم القُمُص من الخمسةِ إلى العشرةِ وفيما بينهما من الثمن.

ولكن قد جَاء فى الخبر: «لا تقومُ الساعة حتى يصيرَ المعروفُ منكرًا والمنكرُ معروفًا». وكان ابن عباسٍ رضى الله عنهما يقول: «لا يأتى على الناسِ عَامٌ إلا أماتُوا فيه سُنَّةً وأحيَوْا فيه بدعةً حتى تموت السننُ وتحيا البدع». وإنما قيل: مُنْكر؛ لأنه لا يُعرَفُ، فإذا خَفِىَ الحق فلم يُعْرَفْ وَقَعَ عليه اسمُ منكرٍ. وكذلك قيل: معروف؛ لأنهُ مشهُورٌ مألوفٌ. فإذا فَشَا الباطلُ وكثُر الجهلُ حتى أُلف وعُرِفَ وقعَ عليه اسمُ المعروفِ. وكذلك قيلَ: يكثر الجورُ حتَّى يُولَدَ فيه مَنْ لا يعرفُ العدلَ.

وكان الشعبىُ رحمه الله يقول: يأتى على الناس زمانٌ يصلُّونَ فيه على الحجَّاج، وهذَا قد أتَى منذُ زمان؛ لأن الحجاجَ قد ابتدعَ أشياء أنكرَها الناس عليه فى زمانه هىَ اليومَ سننٌ معروفةٌ، وأعمالٌ مستحسنةٌ، يترحَّمُ الناسُ ويغبطُون من أحْدثَها، ويحسبون أنه مأجور عليها، مشكور له سعيُه فيها، إلا أنهم لا يعرفُون أنه أحدثها. فهم وإن لم يَفُوهوا بالصلاةِ عليه قولاً [1] فإن استعمالَهم لما أحدث، واستحسانَهم لما ابتَدعَ، ترحُّمٌ منهم عليه؛ والترحُّمُ هو الصلاة.

(١) فى (ك): «فهم وإن لم يفوهوا بذلك قولاً».

وأيضًا فإنه[1] ابتدَعَ أشياءَ من الخيرِ وداخلةً في أبوابِ الآخرةِ، ثم ظهرتْ ولاةٌ بعده أحدثُوا أحداثًا من الجور، وابتدعُوا بدَعًا من الفسُوقِ، فصارتْ سُنُنًا بعدهُمْ. فوجبَ بذلكَ الصلاةُ على الحجاج إلى جنبِ مَا أظهرَ بعده.

فممّا أحدثَ: هذه المحاملُ والقِبابُ التي خالفَ بها هَدْيَ السلفِ بالتنعُّمِ والرفاهية، وإنَّما كان الناسُ يَخرجُونَ علَىَ الرَّواحِلِ والزواملِ، فَيَضْحَوْنَ للشمسِ، ويَنْصَبُون في سبيل الله تعالى، ويَشْعَثُون ويَغْبُرون، ويَقِلُّ أكلُهم ونومُهُم، وتكثرُ رفَاهيةُ الإبل، وتقلُّ المشقَّةُ والحملُ عليها، فيكون ذلك أثوبَ لهمْ، وأزكى لحجِّهم، وأدنَى إلى السلامةِ لإبِلِهمْ، ويوافقون به سنّة نبيهم ﷺ، فأخرجَهُمْ من جميع ذلكَ بما أدخلهُمْ فيهِ من بدْعته، فصاروا يخرجُون في بيوت ظليلة مع الحمل على الإبل ما لا تُطِيق، فيكونَ سببَ تلفِها، فيَشْرَكُونه فِيه، ويَشْرَكُهم بسنَّته[2].

وابتدَعَ أيضًا هَذه الأخْمَاسَ، والعواشر، ورؤوسَ الآيِ، وحَمَّرَ السّوادَ، وخَضَّرَه، وصفَّرهُ، فأدخلَ في المصحفِ ما ليسَ فيهِ من الزُّخرفِ. وكان السلفُ يقولونَ: جرِّدوا القرآنَ كما أنزلهُ اللهُ تعالى، ولا تخلطُوا به غيرَه. فأنكر العلماءُ ذلكَ عليه، حتى قال أبو رُزينٍ: يأتي على الناسِ زمانٌ ينشأُ فيه نَشْءٌ يحسبونَ أنَّ مَا أحدثَ الحجاجُ في المصاحفِ هكَذا أنزَلَهُ اللهُ تعالى. يذمُّه بذلكَ. وحتَّى نُقِلَ الاختِلاَفُ، وأنَّ بعضَهُمْ كَانَ لا يَقرأ في مصحَفِ منقوط بحُمرة، لأن بعضَهم كان لا يرى القراءةَ في مصحفِ منقوط. كما نُقل أنّ بعضَهُمْ كان يرَى شراءَ المصحفِ، ويكرهُ بيعَهُ. أي: فكذلك إذا لم تَنقطْهُ أنتَ، فلا بأسَ أن تَقرأ فِيمَا نَقَطه غيرُك.

وقد كانوا يكرهُون أخذَ الأجْرِ على تنقيطِ القرآن؛ لأجل أنه مبتدعٌ. وقال أبُو بكرِ الهذليُّ: سألتُ الحسنَ رحمه الله عن تنقيطِ المصاحفِ بالأجْرِ. قال: وما تنقيطُها؟ قلتُ: يُعربون الكلمَ بالعربية. فقال: أما إعرابُ القرآنِ فلا بأسَ به. وقال خالد الحذاءُ: دخلتُ على ابن سيرين فرأيتُه يقرأ في مصحفِ منقوطٍ، وقد

(١) أي: «الحجاج».

(٢) أي: يشتركون معًا فيما ابتدعه الحجاج قديمًا وحديثًا.

كان يكرهُ النقطَ. وقال فراسُ بنُ يحيى: وجدتُ وَرَقًا منقوطًا بالنحوِ فى سجنِ الحجاجِ فعجِبْتُ منه، وكان أولَ نقطٍ رأيتُه، فأتيت به الشعبىَّ فأخبرتُهُ، فقال لى: اقرأ عليهِ ولا تنقطه أنتَ بيدك.

ومنها: أنه جَمَعَ مِنْ القرَّاءِ ثلاثين رجُلاً فكانوا يعدُّون حروف المصحف ويعدُّون كَلِمَهُ شهراً. ولو رآهم عمرُ أو عثمان أو عَلىٌّ يصنعونَ هذا بالقرآن ـ أى يعدُّون حروفَهُ وكَلِمه ـ لأوجَعَ رؤوسَهُمْ ضَربًا. وهذا الذى كَرِهَتهُ الصحابةُ، ووصَفوا به قُرَّاءَ آخرِ الزمانِ أنهم يحفظُونَ حُروفَهُ ويضيِّعونَ حُدودَه. وكانَ الحجاجُ أقرأَ القرَّاءِ وأحفظَهُمْ لحروفِ القرآنِ، كان يختُم القرآنَ فى كلِّ ثلاثٍ، وكانَ أضيعَ الناسِ لحدوده.

ومنها: أنه ابتدعَ إخراجَ الحصَى والرملَ مِنَ المساجدِ وفرشَها بالبوارى[1]. كما رُوى أن قتادةَ سجدَ، فدخلتْ فى عينه قصَبَة، وكانَ ضَريرًا، فقال: لعنَ اللهُ الحجاجَ، ابتدعَ هذه البوارىَّ يُؤذِى بها المصلِّين. وَقَدْ كانوا يستحبُّونَ السجُودَ على الأرضِ والترابِ تواضُعًا لله تعالى وتخشُّعًا وُذلاً.

إلى غير ذلكَ من بِدَعه التى لم نَقْصِدْ تعديدها عليه ولا جمعها، فهىَ اليوم سننٌ معروفة وشرائعُ مألوفةٌ، معَ ما أحدثَ غيرُه مما يكثرُ عدَدُه، مُنْكَرٌ كلُّه عند مَنْ عَرَفَ المعروفَ من سيرةِ المتقدمينَ وشمائل الصَّالحينَ.

وقد قال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه: يظهر المنكرُ والبدعُ، حتى إذا غُيِّر منها شىءٌ قيل: غُيِّرت السنّة. وقال فى آخرِ حديثه: أكيَسُهُمْ فى ذلكَ الزمانِ الذى يَروغُ بدينه رَوَغانَ الثعالب. وقد كان أنسُ بن مالكٍ رضى الله عنه فى سنة ثمانينَ وأيامَ الحجاجِ يقول: ما أعرفُ اليومَ شيئًا كانَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ إلا قد غُيِّر إلا شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ. قيل: فالصلاة يا أبا حمزة؟ قال: أو ليسَ قد أحدثُوا فى الصلاة ما عَلِمتُمْ؟! يعنى تأخيرَها والتثويبَ قبلها، وتعيُّن السلام، حتى أنهم يضاهُونَ به الإقامةَ فجعلُوه كالسنّة. وكان يقول للقرَّاءِ إذا دخلُوا عليه، مثلَ يزيدِ

(١) البوارى: الحصير من القصب.

الرقاشيّ، وزيادِ النميريّ، وفرْقد السنجيّ: ما أشبَهكُمْ بأصحابِ محمدٍ ﷺ! فيفرحون. فيقول: نعم، رؤوسكُمْ ولِحاكم. فهٰذا كما قال المجنون:

أما الخيامُ فإنّها كَخيامِهِمْ وأرى نساءَ الحىّ غيرَ نِسائِهَا

وعن جماعةٍ من الصحابة: لو نُشر أصْحابُ رسول الله ﷺ ورأوْكم لما عرفُوا شيئًا مما أنتمْ عليه الآن إلا الصلاةَ فى جماعة. وفى لفظ آخر: إلا أنكمْ تصلُّونَ جَميعًا. وكان الحسنُ يقولُ: صحبتُ طوائفَ لَوْ رأيتمُوهُمْ لقلتُمْ مجانينَ، ولو رأوا خِيَارَكم لقالوا: ما لهٰؤلاءِ من خَلاقٍ.

وقال أبو حازم: أدركتُ القرّاءَ وهم القرّاءُ حقًا، ولوْ كَانَ حَامِلُ القرآنِ فى مائة رجلٍ لعُرِف بشدة تواضعه وحسنِ سمته وخشوعه، وقد وقّره القرآنُ فى سَمْته، وقد خضَّعهُ القرآنُ وأخشَعَهُ. فأما هؤلاء، فوالله ما هُمْ بالقرّاء، ولكنهم الجُرّاءُ. وقد قالَ بعضُهم: كنا نَشْهَدُ الجنازةَ فلا نعرفُ صاحبَ المصيبة، ولا ندرى مَنْ نعزّى مَن شدةِ حُزن القوم. قال: وكان أحدُهُم يبقَى بعدَ شهودِ الجنازةِ ثلاثًا لا يُنتفع به.

وكان الفضيلُ رحمه الله يحذّر من قرّاءِ زمانه فقالَ: إياك وصحبةَ هؤلاء القرّاء، فإنكَ إن خالفتَهم فى شىءٍ كفَّروكَ. وقال سفيانُ الثورىُّ رحمه الله: ما شىءٌ أحبُّ إلىَّ من صحبةِ فتًى، ولا شىء أبغضُ إلىَّ من صحبةِ قارئ. وكان كثيرًا يقول: مَنْ لم يُحسنْ يتغنَّى لم يُحسن يتقرَّى.

وكان بِشْرُ بنُ الحارثِ يقول: لأن أصحبَ فتًى أحبُّ إلىَّ من أن أصحبَ قارئًا، فإياك وصحبةَ القرّاء، فإنهمْ يذمُّونَ غيرَ مذمومٍ، وإن تركتَ الصّلاةَ معهُمْ فى جماعة تشاهدُوا عليكَ.

كُلُّ ذلك، لأنهم يجاوزُون الحدَّ فى الشىءِ، ويسرعُون الإنكارَ إلى كلِّ شىءٍ، لغلبة الجهلِ عليهم، وقلةِ مجالستِهمْ للعلماء ومعاناتِهمْ للعلمِ، وإنهم موصُوفون بدقائقِ الرياءِ والتصنُّع للعامة، فيُنكرونَ غيرَ مُنْكَرٍ، ويتعصبونَ بالبُغْضَة والهجرِ فى الشىءِ اليسيرِ الذى قد يُغتفَرُ مثلُه. وهُمْ غيرُ موصوفين بمحاسنِ الأخْلاقِ، ولا

موسُومينَ بالبشاشةِ والانطلاق، إذ فيهمْ كَزازةٌ، وتغليظٌ على الناس ولزازةٌ، وحنَقٌ على الأغنياء، حتى كأنهُمْ يأكُلون أرزاقَهُم، وكأنهم يعملونَ العبادةَ لهمْ. وفيهِمْ كثرةُ مقتٍ لأهلِ البِشْرِ والطَّلاقة، فلذلك قال بعضهم: الشريفُ إذا تقرّى تواضَع، والوضيع إنْ تقرَّى تكبَّر. وقال آخر: السِّفْلة إذا تقرَّى أكثرَ الأمرَ بالمعروف واعترضَ على جيرانه في كل شيء. يعنى: أكثرَ الأمرَ بالمعروف؛ ليُعرَفَ به؛ فمن أجلِ ذلك رفضَهُمُ العلماءُ، وذمَّهُمُ الحكماءُ؛ لأن العلمَ ينبسطُ ويتوسَّعُ، وتكونُ معه الأخلاقُ الحسنةُ والآدابُ والمروءاتُ الواسعةُ.

والعالمُ يضعُ الأشياءَ فى مواضعها من الناس، ولا يجاوزُ بها ولا بهمُ المقاديرَ، ويَسْتخرجُ لهم المعاذير. ومن صِفَةِ العلماءِ الانقباضُ فى بسط خُلُق. وقد قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: الانقباض على الناس مكسَبَةٌ لعداوتِهِمْ، فكُنْ بين المنقبضِ والمنبسط. وفى الخبر: «إنكم لا تَسَعُونَ الناسَ بأموالكُمْ، فليَسَعْهُمْ منكم وَجْهٌ طَلَقٌ، وخُلُقٌ حَسنٌ». وفى لفظ آخرَ: «وبِشْرٌ وبشاشة». وهذا كلُّه معدومٌ من القرّاءِ ولا يعرفُونَهُ. وقَدْ جعَلَ اللهُ تعالى لكلِّ شيءٍ قَدْرًا، فمَنْ تعدَّى حَدَّ الشيءَ فقد أفسده. وقال بعضُ السلَفِ: قليلُ التواضُعِ يكفِى من كثيرِ العمَلِ، وقليلُ الورعِ يكفِى من كثيرِ العلمِ.

ومن أخلاقِ السّلَفِ مما تهاون به الخلفُ: أنّهم كانوا يعدّون من النفاقِ أن يتكلمَ الرجلُ فيمَنْ يكلِّمُه، أو يكلِّمُ مَنْ تكلَّم فيه؛ لأنهُمْ كانُوا إذَا كلّمُوا أحدًا أو سلّموا علَيه سَلِمتْ له قلوبُهم، ولم يتكلّموا فيه. وإذا تكلّموا فى أحدٍ لبدْعته أو ظهورِ فِسْقِه لم يكلِّموه، وكانوا إذا مدَحُوا أحدًا بقولٍ لم يذمّوه بفعل، وإذا ذمُّوا واحدًا بفعلٍ لم يمدحوه بقولٍ؛ لأنّ فى ذلِكَ لسانينِ واختلافَ وجهينِ، واختلافَ سرٍّ وعلانية.

وكانوا يقولون: معنى: «سلامٌ عليكَ» إذا لقيتَه، أى سَلِمْتَ منى أن أغتابكَ وأذمَّكَ، فكان اختلافُ هذا عِندهُم مِنْ أبوابِ النِّفاقِ.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «شرُّ الناسِ ذُو الوجهينِ الذى يأتى هؤلاء بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ». وفى حديثٍ آخرَ: «مَنْ كان ذا لسانينِ فى الدنيا جعلَ اللهُ لهُ يومَ

القيامةِ لسانينِ من نار».

وكان بعضُهُم يقول: ما ذُكرَ عندى إنسانٌ قط إلا مثَّلتُه جالسًا فقلتُ فى غيبته بما يحبُّ أن يَسْمع. وقال آخر: ما ذُكر عندى رجلٌ إلا تصوَّرتُ فى نفسى مِثالَهُ، فكلٌّ ما أحبُّ أن يقالَ لى قلتُهُ لهُ.

وقال بعض السلفِ: قليلُ التواضع يكفِى عَنْ كثيرِ العملِ، وقليلُ الورعِ يكفى عن كثيرِ العلم.

فهذه كانتْ صفاتُ المسلمِينَ الذينَ يُسلِمُ الناسُ على أيديهِم وقلوبِهم. كانَ أحدُهم إذا ذُكر عنده غيرُه بسوءٍ وقَفَ وتفكّر فى شأن نفسِه، فإنْ كان فيه مثل ذلك السوءِ قطعهُ الحياءُ عن الكلامِ فى أخيه فسكتَ، وإن لم يكن ذلك فيه حَمِدَ اللهَ عزّ وجلّ ورحمَ أخاه، فشغلهُ الشكرُ لمولاه؛ إذ عافاهُ. فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال فى بعض كتب الله تعالى: عجبًا لمن قيلَ فيه الخيرُ وليسَ فيه كيف يفرح؟ ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟ وأعجَبُ من ذلِكَ مَنْ أحبَّ نفسَه على اليقينِ، وأبغض الناسَ على الشكِّ.

ومن طريقة السلفِ مما كانوا يشدّدون فيه حبُّ المدح وطلبُ الحمدِ، حتَّى قال بعضُهُمْ: من أحبّ المدحَ وكَرِهَ الذمَّ فهو منافقٌ.

وقال عمرُ رضى الله عنه لرجل: مَنْ سيِّد قومِك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَ كذلكَ لم تقلْ.

وكتب محمدُ بن كعب فانتسب فقال: القرظى، قيل له: قل الأنصارى. قال: أكره أن أمُنَّ على الله عزّ وجلّ بما لم أفعلْ.

وقال الثورىُّ رضى الله عنه: إذا قيل لَكَ بِئْسَ الرجلُ أنتَ تغضبُ فأنت بِئْسَ الرجل. وقال آخر: لا يزال فيك خيرٌ ما لم تَرَ أن فيك خيرًا. وسُئِلَ بعضُ العلماءِ: مَا عَلاَمَةُ النفاقِ؟ قال: الذى إذا مُدِحَ بما ليسَ فيه ارتاحَ لذلك قلبُه.

وكان سفيان رضى الله عنه يقول: إذا رأيتَ الرجلَ يحب أن يحبَّه الناسُ كلُّهُمْ

ويكرهُ أن يذكُرَهُ أحد بسوءٍ، فاعلمْ أنّه منافق.

فهذا داخل فى وصف الله تعالى المنافقينَ بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١]. فينبغى لمن أمِنَ فى أهل السُّنة أن يخافَ فى أهلِ البدعِ، وهذَا مما دخَل على القرّاءِ الذين ذمّهم العلماءُ مداخلَ الليلِ فى النهار.

ولعلَّ مغرورًا جَاهلاً يتأوّلُ الحديثَ الذى جاء: «إذا مُدِحَ المؤمنُ رَبَا الإيمانُ فى قلبِه» على غيرِ تأويله، ويَحملُه على غيرِ مَحْمَله، فإنَّما قال: «رَبَا الإيمَانُ» ولم يقل: رَبا المؤمنُ. فربُوُّ الإيمانِ زيادتُه، وزيادتُه بالخوف والإشفَاقِ مِنَ المكرِ به والاستدراجِ. وَفيه طريقٌ للعارِفينَ بأنْ يعلوَ الإيمانُ المُعلَّى إلى المولى الأعلَى[1]، فيفرحُ بذلكَ لمولاهُ ويضيفُه إلى سيده الذى به تولاّه، فيردُّ الصنعةَ إلى صَانعَها، ويشهدُ فى الفطْرة فاطرَهَا، فَيكونُ ذلكَ مَدْحًا للصانع، وَوَصْفًا للفَاطر، لا ينظرُ إلى نفسه، ولا يُعْجَبُ بِوَصْفِه. وهذه طُرُقَاتٌ قدْ درستْ وانقَطَعَ سُلاَّكُها إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه

اعلم أن كلَّ علمٍ من العلومِ قد يتأتَّى حفظُه ونشرُه لمنافقٍ أو مبتدعٍ أو مشركٍ إذا رغبَ فيه وحرصَ عليه؛ لأنه نتيجةُ الذهنِ وثمرةُ العقلِ، إلا علمَ الإيمانِ واليقينِ، فإنَّه لا يتأتَّى ظهورُ مشاهدته والكلامُ فى حقائقه إلا لمؤمنٍ مُوقنٍ مِنْ قِبَلِ أن ذلك تقريرُ مزيدِ الإيمانِ وحقيقةُ العلمِ والإيقانِ، فهُوَ آياتُ الله تعالى وعهدُهُ عن مكاشفةِ قدرته وعظمته. وآياتُ الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعَهْدُه لا ينال الظَّالمين، وعظمتُه وقدرتُه لا تكونُ شهادةً للزائغينَ ولا وَجْدًا للمبطلين؛ إذ فى ذلك توهينٌ لآياتِ اللهِ وحجَجِه، وانتقاصٌ لبراهينِه وقدرته، ودخولُ الشكِّ فى

(١) فى (ط) «يعلو الإيمان العلى إلى المؤمن الأعلى» وأثبت ما فى (ك).

اليقينِ الذى هو محجةُ المخلصين[1]، والذين هم بقيةُ الله تعالى من عباده، واشتباهُ الباطلِ بالحقِّ الذى هو وصفُ أهلِ الصدقِ الذينَ همْ أدلّتُه عليه عنْ أهلِ وداده، وهذا منْ أدلِّ دليلٍ على فضلِ علمِ المعرفةِ على غيره، قالَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٠٥].

فهؤلاء العلماءُ بالله تعالى، الناطقُونَ عن الله عزّ وجلّ، جعَلَ لهمْ أنصبةً منهُ، ومكانًا عنده. ولا يكون ذلكَ لمن لَيْسَ أهلاً لهُ، ولا حَقيقًا به؛ لأنهم آياتُ الله تعالى وبيناتُه وشهودُه وبصائرُه[2]، كاشِفُو طَريقه، ومُظْهِرو بيانه؛ إذ يقولُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن:٣ ـ ٤]، بعد قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، معَ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]. فنصَروهُ بِمَا نصرَهُمْ به، وتحقَّقوا بِمَا حقَّقهمْ منهُ، وشَهِدوا له ما شَهِد لهم عنه، فكانُوا للمتقين إمامًا، وإلى الهِدَايةِ أعلامًا.

وقال بعضُ أهلِ المعرفة: مَنْ لم تكنْ له مشاهدةٌ منْ هَذا العلمِ لم يَعْرَ منْ شِرْكٍ أو نفاقٍ؛ لأنه عارٍ من علمِ اليقينِ، ومن عَرِىَ من اليقينِ وُجِدَ فيه دقائقُ الشكِّ. وقال بعضُ العارفينَ: مَنْ لم يكن له نصيبٌ من هذا العلم أخافُ عليه سوءَ الخاتمة. وأدنَى النصيب منه التصديقُ به وتسليمُه لأهله. وقال آخر: مَنْ كان فيه خَصْلتانِ لم يُفتَحْ له من هذا العلمِ شىءٌ: بدعةٌ أو كِبْرٌ. وقالت طائفةٌ من أهله: مَنْ كان محبًا للدنيا أو مُصرًا على هَوًى لم يتحقق به.

---

(١) فى (ك): «المتقين».

(٢) فى (ك): «وطرقاته».

وقال أبو محمد سهل: أقلُّ عقوبةِ مَنْ أنكرَ هذا العلمَ أن لا يُرزقَ منه شيئًا أبَدًا.

واتفقوا على أنّه علمُ الصديقينَ، وأنَّ مَنْ كانَ له منهُ نصيبٌ فهوَ من المقربينَ، وينالُ درجةَ أصحابِ اليمينِ.

واعلم أنّ علمَ التوحيدِ ومعرفةَ الصفاتِ مباينٌ لسائرِ العلوم. فالاختلافُ في سائرِ العلومِ الظاهرةِ رحمةٌ، والاختلافُ في علمِ التوحيدِ ضلالٌ وبدعةٌ، والخطأ في علمِ الظاهرِ مغفور وربَّما كانت حسنةً إذا اجتهَد، والخطأ في علمِ التوحيدِ وشهادةِ اليقين كفرٌ، من قِبَلِ أنّ العبادَ لم يُكلَّفوا حقيقةَ العلمِ عند الله تعالى في طلبِ العلم الظاهر، وعليهم واجبٌ طلبِ موافقةِ الحقيقة عندَ الله في التوحيدِ. ومنِ ابتدَعَ شيئًا رُدَّتْ عليهِ بِدعتُهُ، وكان مَسؤولاً عَنهُ، ولم يكنْ حجةً لله تعالى على عبادِه، ولا غِنًى نافعًا في بلاده، بلْ كانَ موصُوفًا بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عزّ وجلّ، ولا من دعَاةِ الدين، ولا إمامًا للمتقينَ. وقد جَاءَ في الخبرِ: «العلماءُ أمناءُ الرسلِ ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخَلوا في الدنيا فاحْذَرُوهمْ على دِينِكم»، والخبر المشهور: «من أحْدَثَ في دِيننا ما ليسَ فيه فهُو رَدٌّ».

وقد رُوينا عن عيسَى عليه السلام وقيل له: مَنْ أشدُّ الناس فتنةً؟ فقال: «زَلَّةُ عالِم إذا زَلَّ زلَّ بزلَّتِه عالَم».

وقد رُوينا معناه عن نبينا محمدٍ ﷺ: «مما أخافُ على أمّتي زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ منافقٍ في القرآن».

وكان بعضُ السلفِ يقول: مَثَلُ العالِم إذا زلَّ مَثَلُ سفينةٍ إذا غَرِقتَ غرِقَ معها خلقٌ كثيرٌ، ومَثلُ كُسوفِ الشمسِ، يَصِيح الناسُ: يا غَافِلُون الصَّلاةَ، وإنّها عِندَ العامَّةِ آيةٌ يُفزَعُ مِنْها.

ويُروَى في خبرٍ غريبٍ: «مَنْ غَشَّ أمتي فعَليه لَعْنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين. قيل: يا رسولَ الله، وما غِشُّ أمّتِك؟ قال: أن يبتدعَ بدْعةً في الإسلامِ

يحملُ الناسَ عليها». وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباع، وويل للأتباع من العالِم، يزلُّ العالِمُ بزلة فيتبعُه عليها فِئامٌ منَ الناس، وتبلغُ الآفاقَ.

وما أعلمُ أحدًا أعظمَ جُرْمًا ممن ابتدعَ فى دينِ الله عزّ وجلّ، فنطَقَ فى كتابِ الله تعالى وفى علمِ المعرفةِ بما لم يأذَنْ به الله، ثم لم يَعْبأ بسننِ رسولِ الله ﷺ الذى هُوَ حجَّةُ الله تعالى على جميع خلْقه، وطريق مقرَّبيه من عباده، فأضلَّ بذلكَ عبادَ الله عزّ وجلّ. فإنَّ مَثَلَ مَنِ ابتدعَ فى الدين واتّخذَ وليجةً دون الكتابِ والسنّةِ ومن(١) طريق المؤمنين إلى جَنْبِ مَنْ يكاثرُ فى أمورِ الدنيا وارتكبَ فيهَا شهواتِ الأهواءِ ـ كَمَثَلِ من اجترحَ المظالمَ بينَ الناس فى الأموالِ والدماء، إلى جنبِ مَنْ ظلمَ نفسَه بكسْبِ الذنوبِ بينَهُ وبينَ ربّه. إنَّ مظالمَ العبادِ أعظَمُ، وهوَ الدِّيوانُ الذى لا يُترَكُ، كذلكَ التمويهُ فى الدِّين أعظمُ، لأنهُ مظالمُ الآخرةِ وقطْعُ طرقاتِ المؤمنين ومحوُ شريعةِ المرسلين(٢).

ومَثَلُه أيضًا مَثَلُ من أذنبَ وجَحَدَ ذنبَهُ واحتجَّ لنفْسِهِ إلى من أذنَبَ، واعترفَ بذنبِهِ واعتذرَ من نفسِهِ، فهُوَ أقربُ للعفوِ وأرجى للرحمةِ من الآخر.

كذلكَ من اعتلَّ بالتقصيرِ والتفريطِ فى العلمِ ولم ينصحْ لنفسِهِ إلا أنه أظهرَ حقيقةَ العلمِ ونصحَ لله تعالى ولرسولِه ببيان كتابه وذكرِ سنته أقربُ إلى حُسْنِ الإخلاصِ، وأولى بالتدارُكِ فى العافيةِ ممن شرَعَ فى دينِ الله تعالى وابتدعَ فى الأمة ما يُخَالفُ به الكتابَ والسنّةَ. هكذا كأنهُ قد قلَبَ مِلّةً وبدَّلَ شريعةً. فهذا يولِّدُ النفاقَ فى قلبِهِ حتّى يُختَمَ لهُ بِهِ.

ومَثَلُ من ابتدَعَ فى الملّةِ مخالفًا للسنة(٣)، إلى من أساء إلى نَفْسِهِ بالذنوبِ، مَثَلُ مَنْ عصَى المِلكَ فى قلبِ دولتهِ، وتظاهرَ عليه فى ملكهِ بالإزالةِ، إلى جنْبِ من

---

(١) فى (ط): «وبين» وأثبت ما فى (ك).

(٢) عبارة (ك): «كذلك التمويه فى الدين يتعاظم لأنه مظالم الدّين ومظالم الرسل كهذه مظالم الخلق».

(٣) فى (ك): «السنة رسول الله ﷺ».

عَصَى أمرَهُ، وقصرَ فى حقِّه منَ الرعيَّة. وقَدْ قال بعضُ الحكماء: ثلاثٌ لا يَحْسُنُ من الملك أن يغفرَها: من قلبَ دولةً من رعيته، أو عَمِلَ فيما يُوهِنُ المُلْكَ، أو أفسَدَ (١) حرمةً من حُرَمه.

وروينا عن النبى ﷺ: «إن لله تعالى ملكًا ينادى كلَّ يوم: مَنْ خالفَ سنّةَ رسولِ الله ﷺ لم تنلْه شفاعتُه». وقال على كرّم الله وجهه: الهوى شريكُ العمَى. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّنِ افْترَى على الله كَذبًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿أوْ قَالَ أُوحِيَ إلىَّ ولَمْ يُوحَ إليه شَىءٌ ومَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أنزَلَ اللهُ﴾ [الانعام:٩٣]، فسَوّى بينَ الكذَّابِ فى الفِرْيَةِ على الله تعالى وبين المتشبهِ المضاهِى للربوبيَّةِ.

وكذلك مِنْ أعظم المنكرِ بعد هذا إنكارُ الحقّ من أهله وردُّه عليهم بالتكذيب. وقد سوّى تعالى أيضًا بين التكذيبِ بالحقِّ وبينَ ابتداءِ الكذبِ على الخالق فى قوله عزّ وجلّ: ﴿ومَنْ أظلَمُ ممَّنِ افْترَى على الله كَذبًا أوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَهُ﴾ [العنكبوت:٦٨]. وقال تعالى فى مثله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنْ كَذَبَ عَلَى الله وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر:٣٢]. كذلك أيضًا فى ضده سَوّى، كما سَوّى عزّ وجلّ بين الصادقِ بالصدْقِ والمصدِّق به فقال تعالى: ﴿والذى جَاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ به أُولئكَ هُمُ الْمتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

قال رسولُ الله ﷺ: «العالِمُ والمتعلِّمُ شريكان فى العلم». وقال عيسى عليه السلام بمعناه: «المستمعُ شريكُ القائلِ».

ولكنّ الله تعالى قد جعلَ هذه الطائفةَ من أهلِ العلمِ بالله تعالى تردُّ على جميعِ الطوائف من الشَّاطِحِينَ والمبتَدِعينَ أهل الجهالةِ بالدِّين والحَيْدَةِ عن سبيلِ المؤمنينَ بِمَا أراهَمُ اللهُ تعالى من علم اليقين، وبِمَا شهدَ لهُم رسُولُ الله ﷺ بالعلمِ والتعديل فى قوله: «يَحمل هذا العِلْمَ مِنْ كلِّ خَلفٍ عُدُولُه، يَنفُونَ عنهُ تحريفَ

(١) فى (ك): «إفساد».

الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلين». فالغالُونَ: هم الشاطحُونَ؛ لأنهم قد جاوزوا العلمَ، ومَحَوُا الرسْمَ فأسقطُوا الحكْمَ. والمبطلونَ: هم المدّعُون المبتدعُون؛ لأنَّهُمْ جَادلوا بالباطلِ ليَدحَضُوا به الحقَّ، وافترَوْا بالدعوَى، وابتدعُوا بالرَّأى والهوى. والجَاهلُون: هُم المنكرونَ لغرائبِ العلم، المفترونَ لما عَرَفُوا من ظاهرِ العقلِ. كما روينا عن النبى ﷺ: «إنَّ منَ العلمِ كَهَيئة المكنونِ لا يَعلمُه إلا أهلُ المعرفة بالله عزّ وجلّ». فإذا نطقُوا به لم يَجْهَلْه إلا أهلُ الاغترار بالله تعالى. ولا تُحقِّروا عَالِمًا آتاهُ اللهُ تعالى علْمًا، فإنَّ الله عزّ وجلّ لم يُحقِّرهُ إذ آتاهُ.

وكلُّ من تأوَّل السنن بالرأى أو المعقول، أو نطق بمَا لم يسبقْ إليه السلفُ من القَول أو بمعناهُ فهو متكلِّفٌ مبطلٌ. فأهلُ العلمِ بالله تعالى يردّون علومَ المعقولِ بعلمِ اليقينِ، وعلمَ الرأى بعلم السنَّة، يثبّتون أهلَ الآثارِ، ويؤيدُونَ نَقَلةَ الأخبارِ، بِمَا يُفصِّلُونَ منْ أخبارِهمْ، ويفسِّرُون من حديثهم، مما لم يُجعَلْ للنَّقلةَ طريقٌ إليه، ولم يهتدِ الرُّواةُ إلى كشْفِ منهُ بِمَا أشهدَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، واستودَعهُمْ، ونوَّرَ به قلوبَهُمْ ونطَّقهُمْ، فهم ينطِقُون عن الله سبحانه وتعالى فيما يُخْبرون عنه، ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ: ﴿**وجَعَلْنا منْهُمْ أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكانُوا بآياتنا يُوقنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد قال بعضُ العلماء: ما تكلّم فيه السلفُ فالسكُوتُ عنه جَفَاءٌ، وما سكَتَ عنهُ السلفُ فالكلامُ فيه تكلفٌ. وقال آخر: الحقُّ ثقيلٌ، من جاوزَهُ ظَلَمَ، ومَنْ قَصُرَ عنه عَجَز، ومن وقف معه اكتفَى. وقال علىٌّ رضى الله عنه: عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسَط الذى يَرْجِعُ إليه العَالى، ويرتَفِعُ عنه القَالى.

وهكذا سيرةُ السَّلَف أنه لا يُستمَعُ إلى مبتدعٍ لأنه مُنكَر، ولا يُرَدُّ عليه بالجدالِ والنظرِ لأنه بِدْعَةٌ، ولكن يُخبَرُ بالسُّنن، ويُحتَجُّ بالأثرِ، فإنْ قيلَ: فَهُوَ أخُوكَ فى الله عزّ وجلّ، و جبت عليك مولاتُهُ، وإن لم يَرْجِعْ وأنكر نُقِضَ بإنكاره، وعُرِّفَ ببدعته، وحقَّتْ عداوتُه، وهُجِرَ فى الله تعالى. وهذا طريقٌ لا يَسْلُكُه فى وقتنا هذا إلا من عَرَفَ فضْلَهُ وطريقةَ السلفِ فيه.

وحُدِّثتُ عن إبليس ـ لعنه الله ـ أنه بثَّ جنودَهُ فى وقتِ الصحابةِ، فرجَعُوا إليه محسُورين، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مِثْلَ هؤلاء القوم، ما نُصيبُ منهُمْ شيئًا، قد أتعبونا. فيقول: إنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عليهمْ قد صحِبُوا نبيَّهُمْ، وشهدوا تنزيلَ ربِّهم، ولكن سيأتى بعدهم قومٌ تنالُونَ منهم حَاجَتَكم. فلما جاء التابعُون بثَّ جنودَه فيهم فرجَعُوا إليه منكسِرين منكُوسين، فقال: ما شأنُكمْ، قالُوا: ما رأينا أعجَبَ من هؤلاء القوم، نصيبُ منهم الشىءَ بعدَ الشىءِ من الخطايا، فإذا كان من آخر النهارِ أخذُوا فى الاستغفار فتُبدَّل سيئاتُهم حسناتٍ، فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئًا لصحَّة توحيدِهم، واتباعهم سنّة نبيهمْ، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قومٌ تَقرُّ أعينُكم بهم، تلعبُونَ بهم لَعِبًا وتقودونهُمْ بأزمَّة أهوائهم كيف شئتم؛ إن استغفرُوا لم يُغْفَرْ لهُمْ، ولا يتُوبون فتُبدَّلْ حَسناتُهمْ سيئات. قال: فجاء قومٌ بعد القرنِ الأولِ، فبعثَ فِيهمُ الأهواءَ، وزيَّن لهمُ البدعَ، فاستحلُّوهَا واتخذوها دينًا، لا يستغفرون منها، ولا يتوبون إلى الله. قال: فتسلَّطتْ عليهمُ الأعداءُ، وقادَتْهُم أينَ شاؤوا.

وقد قالَ ابن عباسٍ رضى الله عنه: إن للضلالة حلاوةً فى قلوبِ أهْلِها.

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الانعام: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧].

فالعلمُ ـ رحمك الله ـ هُو الذى كان عليه السلفُ الصالحُ المقتَفى آثارُهم، واخلَفُ التابعُ المقتَدى بهَدْيِهمْ. وهُمُ الصحابةُ أهلُ السَّكِينة والرِّضَا، ثم التابعُون لهم بإحسانٍ من أهلِ الزّهدِ والنُّهى.

والعالِمُ هو الذى يدعُو الناسَ إلى مثل حاله حتَّى يكُونوا مثلَه، فإذا نظروا إليه زَهدُوا فى الدُّنيا لزُهْده فيها، كما كانَ ذو النُّون رحمه الله يقول: جالسْ من يكلِّمُكَ علْمُه لا مَنْ يكلِّمُكَ لسَانُه. وقد قال الحسن رضى الله عنه قبلَهُ: عِظِ الناسَ بفِعْلِكَ ولا تَعِظْهُمْ بقولك.

وقال سهلٌ رحمه الله: العلمُ يهتفُ بالعَمل، فإن أجابه وإلا ارتحلَ. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: «أيُّ جلسائنا خير؟ فقال: مَنْ ذكَّركُمْ بالله تعالى رؤيتُه، وزاد في علمِكُم مَنْطقُه، وذكَّركُمْ بالآخرة عملُه».

فأمّا الذى يطلبُ دنياهُمْ حتَّى يكونَ مثلَهُمْ، فإذا رأوهُ اغتبطوا بحالِهِمْ، فهذا شرٌّ منهم، لأنه يدعُو إلى نفْسهِ لا إلى مولاه؛ ولأنه طامعٌ فيهم وهُم زاهدون فيه.

فالعلماءُ الذين هُم ورثةُ الأنبياء همُ الورعون في دين الله عزّ وجلّ، الزاهدون في فضولِ الدنيا، الناطقُونَ بِعِلمِ اليقينِ والقدرةِ لا عِلْمِ الرأى والهوى، والصائمون[1] عن الشّبهَاتِ والآراءِ، لا يختلفُ هذا إلى يومِ القيامةِ عندَ العلماءِ الشّهداءِ على الله تعالى برأيِ قائلٍ، ولا بقولِ مُبطلٍ جاهلٍ.

كما رُوى عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ: «صلَحَ أولُ هذه الأمةِ بالزهْدِ واليقين، ويَهلكُ آخرُها بالبخلِ والأملِ».

وقال يوسفُ بنُ أسباطٍ: كتبَ إليَّ حُذَيفةُ المرعشى: ما ظنُّكَ بمن قد بَقِيَ لا يجدُ أحدًا يذكُر الله تعالى معه إلا كان آثمًا وكانت مذاكرتُه معصيةً؛ وذلك أنه لا يجدُ أهله. قلت ليوسف: يا أبا محمدٍ، وتعرفهُمْ؟ قال: لا يَخفَوْنَ علَينا.

ويقال: إن الأبدالَ إنّما انقطَعُوا فى أطرافِ الأرضِ، واستتروا عن أعينِ الجمهورِ؛ لأنهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلى علماءِ هذا الوقتِ، ولا يصبرُون على الاستماع لكلامهم؛ لأنهُم عندهم جهّالٌ بالله تعالى، وهم عِندَ أنفسهِمْ وعند الجاهِلينَ علماء، فقد صاروا من أهلِ الجهل. وأهلُ الجهل بالجهلِ على الوصفِ الذى قال سَهْلٌ رحمه الله: إن منْ أعظمِ المعاصِى الجهلَ بالجهلِ، والنظرَ إلى العامة. واستماعُ كلام أهلِ الغفلة أيسرُ عندهم؛ لأنهُمْ لا يَعْدمُونَ ذَلكَ حَيثُ كانوا من أطراف الأمصار؛ لأنّ العامةَ لا يموّهون فى الدين، ولا يغرُّون المؤمنين، ولا يدَّعُونَ أنهمْ علماء؛ لأنهم يتعلَّمُونَ، وبالجهْلِ معترفُونَ، فهم إلى الرحمةِ أقربُ، ومن المقتِ أبعدُ.

---

(١) فى (ط): «والصامتون».

وكان أبو محمد أيضًا يقول: قسوةُ القلب بالجهلِ بالعلمِ أشدُّ من القسوةِ بالمعاصي؛ لأن الجاهلَ بالعلم تاركٌ ومدّعٍ، والعاصي بالفعل مقرٌّ بالعلمِ. ويقول أيضًا: لأنّ العلمَ دواءٌ به تصلُحُ الأدواء، فهو يُزيل فسادَ الأعمالِ بالتدارك، والجهلُ داءٌ يُفْسِدُ الأعمالَ بعد صلاحها، فهو يزيل الحسناتِ فيجعلها سيئات. فكمْ بينَ ما يُصْلِحُ الفاسدَ وبينَ ما يُفسِدُ الصالحات؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فهذا من أدلِّ دَليلٍ على فضلِ العالِم المقصِّر على العابدِ المجتهدِ.

واعلم أنَّ العبدَ إذا باينَ الناسَ في كلِّ شيءٍ من أحوالهم انفردَ عن جمعِهم، ولم يألفْ أحدًا منهم. وإن باينهُمْ في أكثرِ أحوالهم اعتزلَ عنِ الأكثرِ منهُم. فإنْ فارقَهُمْ في بَعْضِ الأحوالِ ووافقَهُمْ في بعضِ حالهِ خَالطَ أهلَ الخيرِ وفارقَ أهلَ الشرِّ.

باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة في النقل والرواية

جميعُ ما ذكرناه في هذا الكتابِ من الأخبارِ عن النبي ﷺ ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظًا، وسُقناه على المعنى إلا يسيرًا اتفقَ وجودُه في أيدينا، وقَرُبَ تناوله منَّا من أخبارٍ فيهَا طولٌ فإنَّا نقلناها من مَوَاضِعَها، وما بَعُدَ علينا فلمْ نَفقه ولم نشغَلْ همتَنا بِهِ، فمَا كان فيهِ من صَوابٍ وبيان وتثبُّت فمن الله تعالى بحُسن توفيقه وقوّة تأييده، وما كان فيه من خطأٍ وعَجَلةٍ وهوًى فمنَّا بالسّهْوِ والغفلةِ، ومن عملِ الشيطانِ بالعجلةِ والنسيانِ.

كذلك روينا عنِ ابن مسعُودٍ رضي الله عنه في قضيَّتِهِ التي قَضاهَا بِرَأيه، وقولُنا لرأيه تَبعٌ.

ورُوينا عن رسولِ الله ﷺ: «البيانُ والتثبُّتُ من الله عزّ وجلّ، والعجلةُ والنسيانُ من الشيطان» يعنى بواسطته وبقلّة التوفيق.

ولم أعتبرْ ألفاظَ الأخبارِ فى أكثره، ولم آلُ عَنْ سياقِ المعنى فى كلّه؛ إذ ليسَ تحريرُ الألفاظِ عندى واجبًا إذا أتيتُ بالمعنَى بعد أن تكونَ عالمًا بتصريفِ الكلام، وبتفاوتِ وجوهِ المعانى، مجتنبًا لما يكونُ به تحريفٌ، أو إحالةٌ بين اللفظين.

وقد رَخَّصَ فى سَوْقِ الحديثِ على المعنى دُونَ سِيَاقِه على اللفظ جماعةٌ من الصحابة منهم: علىٌّ، وابنُ عباس، وأنسُ بنُ مالك، وواثلةُ بن الأسقع، وأبو هريرة، ثمَّ جماعةٌ منَ التابعينَ يكثُرُ عددُهُمْ منهُمْ: إمامُ الأئمةِ الحسنُ البصرِىُّ، ثم الشّعْبِىُّ، وعمرو بن دينار، وإبراهيم النخعى، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، رضى الله عنهم، نقلنا ذلكَ عنهم فى كُتبِ سِيَرهم بأخبار مختلفةِ الألفاظ. وقال ابن سيرين: كنتُ أسمعُ الحديثَ من عشرةٍ؛ المعنى واحدٌ والألفاظُ مختلفةٌ. ولذلك اختلف الصحابةُ فى روايةِ الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ، فمنهُمْ من يرويه تامًا، ومنهُمْ من يَجِىءُ به مختصرًا، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضُهُم يغايرُ بين اللفظتين ويراه واسعًا إذا لم يخالفِ المعنى، ولم يُحِلِ البُغْيةَ. وكلُّهمُ لا يتعمدُ الكذبَ، وجميعُهم يَقصدُ الصدقَ، ومَعْنَى ما سَمِعَ، ولا يُحِيل البُغْيةَ. فلذلكَ وَسِعَهم وكانوا يقولون: إنّما الكذبُ على مَنْ تَعمّده.

وقد رُوينا عن عمرانَ بن مسلم قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنكَ تحدِّثُ بالحديث أنتَ أحسنُ له سِياقًا، وأجودُ تحبيرًا، وأفصحُ به لسانًا منَّا، إذا حدَّثتنا به. فقال: إذا أصبتَ المعنَى فلا بأسَ بذلك.

وقد قال النضرُ بن شُمَيل: كان هِشَام لحّانًا فكسوتُ لكُمْ حديثَهُ كسوةً حسنةً. يَعْنِى بالإعرابِ، وكان النضرُ نَحْويًا.

ونحن قائلونَ فى جميع ما رويناهُ: أو كما قيلَ، ونحوه، وشبهه. وبمعناه كذلك قال ابنُ مسعودٍ فى حديثه. وكان سليمانُ التيمىُّ يقوله فى كلِّ ما يحدِّثُ به. وقدْ كانَ سفيانُ رحمه الله يقولُ: إذا رأيتَ الرجُلَ يشدّدُ فى ألفاظِ الحديثِ فى

المجلس فاعلمْ أنه يقول: اعرفُونِى. قال: وجعلَ رجُلٌ يسألُ يحيى بن سعيدٍ القطّانِ عن حرف فى الحديثِ على لفظِه، فقال له يحيى: يا هذا ليسَ فى أيدينا أجَلُّ من كتابِ اللهِ تعالى، وقد رُخِّصَ بالقراءةِ فيه بالكلمة على سبعةِ أحرفٍ، فلا تُشدِّدْ.

وفى بعضِ ما رويناه مراسيل، ومقاطيعُ، ومنها ما فى سنده مقالٌ، وربما كان المقطوعُ والمرسلُ أصحَّ من بعض المسند؛ إذ رواهُ الأئمةُ. وجَازَ لَنَا رسْمُ ذَلكَ لمعانٍ:

أحدُهَا: أنَّا لسْنَا على يقينٍ من باطنها.

والثانى: أنّ معَنا حجةً بذلكَ وهو روايتُنَا له، وأنَّا قد سمعناه، فإن أخطأنا الحقيقةَ عندَ الله تعالى فذلك ساقطٌ عنا، كما قال الأسباطُ: ﴿وما شَهِدْنا إلا بما علِمْنا ومَا كنّا لِلغَيْبِ حَافِظِين﴾ فى قولهم: ﴿إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف:٨١]، فأخطؤوا الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذُورينَ لوجودِ الدليل، وهو شهادتُهم للصّاعِ مستخرَجٌ من رَحْلِ أخيهمْ.

والثالث: أن الأخبارَ الضّعافَ غيرَ المخالفةِ للكتابِ والسنّةِ لا يلزمُنا ردُّها، بلْ فيهما ما يدلُّ علَيْها.

والرابعُ: أنَّا متعبِّدُونَ بحُسْنِ الظنّ، منهيُّونَ عَنْ كثيرٍ من الظنّ، مذمُومُونَ بظنِّ السوءِ.

والخامس: أنهُ لا يُتوصَّلُ إلى حقيقة ذلك إلا من طريقِ المعاينة، ولا سبيلَ إليها فاضطُررنا إلى التقليد، والتَّصْديقِ بحُسْنِ الظن بالنَّقَلة، معَ ما تسكُن إليه قلوبُنا، وتلينُ لهُ أبشارُنا، ونَرَى أنه حَقٌّ، كما جَاءَ فى الخبر.

وأيضًا فإنه ينبغِى أن نعتقدَ فى سلفنا المؤمنين أنَّهم خيرٌ منَّا، ثم نحنُ لا نكذِبُ على رسولِ الله ﷺ، ولا على التابعين، فكيفَ نظنُّ بهم أن يكْذِبُوا وَهُمْ فوقنا.

على أنّهُ قد جاءَتْ أحاديثُ ضعافٌ بأسانيدَ صحاحٍ، فكذلك يَصلُح أن نُورِدَ

أحاديثَ صحاحًا بسند ضعيف؛ لاحتمال أن يكونَ قد رُوِيَ من وجه صحيح؛ إذ لم نُحطْ بجُمْلة العلم، أو لأن بعضَ مَنْ يُضَعِّفه أهلُ الحديث يقوِّيه بعضُهم، وبعضَ من يجرحُه ويذمّه أحدٌ يعدِّله ويَمْدحُه آخرُ، فصار مختَلفًا فيه، فلَمْ يُرَدَّ حديثُهُ بقول واحد دونَ مَنْ فوقَه أو مثلَه. أو لأنَّ بعضَ ما يُضعَّفُ به رواةُ الحديث وتُعلَّلُ به أحاديثُهم لا يكون تعليلاً ولا جَرْحًا عند الفقهاء، ولا عند العلماء بالله تعالى، مثلَ أن يكون الراوى مجهُولاً لإيثارِه الخُمُولَ وقد نُدِبَ إليه، أو لقلة الأتباع له إذ لم يَقُمْ لهم الأثرةُ عنه، أو ينفرد بلفظ أو حديث حفظَهُ أو خُصَّ به دون غيرِه من الثقات، أو يكون غيرَ سائقٍ للحديث على لَفْظِه، أو لا يكونُ معتنيًا بحفظه ودَرْسه.

وقد يتكلم بعضُ الحفّاظ بالإقدام والجراءة، فيجاوزُ الحدَّ فى الجرح، ويتعدّى فى اللفظ، ويكونُ المتكلَّم فيه أفضلَ منه، وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجةً، فيعودُ الجرحُ على الجارح. أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمعَ منه كلامًا يجرحُه عند الفقهاء علّله به بعضُ القرّاء من الرواة، وأن[1] بعضَ مَنْ يضعِّفه أصحابُ الحديث هو مِنْ علماء الآخرة، ومن أهل المعرفة بالله تعالى، ولهُ فى الرواية والحديث مذهبٌ غيرُ طريقة بعض أصحاب الحديث، فيعملُ فى روايته بمذهبه، فلا يكونُ أصحابُ الحديث حجةً عليه إلا كَانَ هو حجةً عليهم؛ إذ ليس هو عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعّفه؛ إذ رأى غيرَ رأى مذهبه.

وقال بعضُ العلماء: الحديثُ وإنْ كانَ شَهَادةً فَقَدْ وُسِّعَ فيه بحُسْنِ الظَّن كما جُوِّز فيه قَبُولُ شهادة واحد؛ أىْ للضّرُورة كشَهَادة القابلة ونحوها. وروينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديثُ إذا لم ينافه كتاب أو سنّة وإن لم يَشْهدا لَهُ إنْ لم يَخْرجْ تأويلُه عن إجماع الأمة فإنه يُوجبُ القَبُولَ والعملَ بقوله ﷺ، كيف وقد قيلَ: والحديثُ الضعيفُ عندى آثرُ من الرأى والقياس. وهذا مذهبُ الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه.

---

(١) فى (ك): «أو يكون رأى عليه لباسًا أو سمع منه كلامًا لا يجرحه عند الفقهاء علله به بعض القراء والرواة وإذ بعض»

والحديثُ إذا تداوله عصران، أو رواهُ القرونُ الثلاثةُ، أو دارَ فى العصرِ الواحد، فلم ينكره علماؤه، وكان مشهوراً لا ينكرُهُ الطبقةُ من المسلمين، احتُملَ ووقع به حجةٌ، وإن كان فى سَنَده قولٌ؛ إلا ما خالفَ الكتَابَ والسنن الصحيحة، أو إجماعَ الأمة، أو ظَهَرَ كذبُ ناقليه بشهادةِ الصادقينَ من الأئمَّة.

وقال وكيعُ بنُ الجراح: ما ينبغى لأحدٍ أن يقولَ: هذا الحديثُ باطِل؛ لأن الحديثَ أكثرُ من ذلكَ. وقال أبو داود: قال أبو زرعة الرازى: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ عن عشرين ألف عين تطرُف، كلُّ واحد قد رَوَى عَنهُ ولو حديثًا، ولَوْ كَلِمةً أو روايةً. فحديثُ رسولِ الله ﷺ أكثرُ من أنْ يُحصَى.

وذكر رجلٌ عندَ الزهرىّ حديثًا فقالَ: مَا سَمِعنا بِهَذا، فقال: أكُلَّ حديثِ رسولِ الله ﷺ سمعتَ؟ قال: لا. قال: فثُلثاه، قال: لا، قال: فنصفه، فسكت. وقال: عُدَّ هذا من النصفِ الذى لم تَسْمعْهُ.

وقال الإمامُ أحمد بنُ حنبل رضى الله عنه: كان يزيدُ بن هارون يكتبُ عن الرجلِ وهُو يعلمُ أنه ضعيفٌ وكان له ذكاءٌ وعلمٌ بالحديث. وقال إسحاقُ بن راهويه: قيل للإمام أحمد بن حنبل: هذه الفوائدُ التى فيها المناكيرُ ترى أن نكتبَ الجيدَ منها؟ فقال: المنكر أبدًا منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يُحتاج إليهِمْ فى وقتٍ. كأنَّه لم يرَ بالكتابةِ عنهُمْ بأسًا.

وقال أبُو بكرٍ المروزىّ عنهُ: إنَّ الحديثَ عَنِ الضعفاءِ قد يُحتاجُ إليه.

ومما يدلُّكَ على مذهبِه[1] فى التوسعَة أنه أخرجَ حديثَه كلَّهُ فى المسندِ المأثورِ عنه الذى رُويناهُ عنْ أشياخنا عن ابنه عبدِ الله عنهُ ولمْ يَعْتبرِ الصحيحَ منهُ، وفيه أحاديثُ كثيرةٌ يعلمُ الثقاتُ أنها ضعيفةٌ، وهو أعلمُ بضعفها منهُمْ، ثم أدخَلها فى مسنده؛ لأنه أرادَ تخريجَ المسند ولم يقصدْ تصحيحَ السند، فاستجَازَ روايتَهَا كما سَمِعَها. وقد كان قَطع أن يُحدِّثَ الناسَ فى سنةِ ثمانٍ وعشرين، وتُوفِّى فى سنة إحدى وأربعين، فلمْ يَسْمعْ أحدٌ منه فى هذه المدةِ إلا ابنُه عبدُ الله، وابنُ منيع

(١) يقصد مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

جُزءًا واحدًا بشفاعَةِ جدّه أحمد بن منيع.

وحدثونا عنه ـ أعنى الإمامَ أحمدَ ـ قال: كان عبدُ الرحمن ينكرُ الحديثَ ثم يَخْرجُ إلينا بعد وقت فيقولُ: هو صحيح قد وَجَدته. قال: وأما وكيعٌ فلم ينكرْ ولكنْ يقولُ إذا سُئِل عنه: لا أحفظُه. وحدثونا عن ابن أختِ عبدِ الرحمن بن مهدى قال: كان خَالِى قَدْ خَطَّ علىَّ أحاديثَ، ثم صحَّحَ عَليها بعد ذلك، وقرأتُها عليه، فقلت: قد كنتَ خَطَطْتَ عليها، قال: نعم، ثم تفكَّرتُ فإذا أنى إن ضعَّفتها أسقطتُ عدالةَ ناقليها، فإنْ جاء بى بين يدَى الله تعالى وقال: لِمَ أسقطتَ عدالتى؟ رأيتَنى، سمعتَ كلامى؟ لم يكنْ لى حجة.

هذا كان مذهب الورعِينَ من السلف. وقدْ كان بعضُهُم يقول: كنَّا نَتْركُ مجالسة شُعبة لأنه كان يُدخِلُنا فى الغِيبةِ، وإنَّما كان كلامُه فى التَّضْعيف.

وقال بعضُهم فى تضعيف الرواة: إن خلُصَت نيتك ـ يَعْنِى إنْ أردْتَ الله عزّ وجلّ والدين بذلك ـ لم يكنْ لكَ ولا عليكَ.

فهذه الفصُول التى ذكرناها هى أصُولٌ فى معرفة الحديث، وهُو علمٌ لأهله، وطريقٌ هُمْ سالكُوهُ. ثم حدَّثَ قومٌ لم يكنْ لهم علمٌ يُختَصُّونَ به، ولا حال من علمٍ يُوصفونَ به، ولا شغلٌ من عبادةٍ تقطعُهم، فجعلُوا لنفوسهم علمًا تشاغَلُوا به، وَشَغَلوا منِ استمعَ إليهم، فصنَّفوا كتبًا، وأخذوا يتكلَّمُونَ فى نَقَلةِ الأخبارِ بالتعليلِ وتتبُّعِ العثارِ، فطرَقُوا لأهل البدعِ إلى ردّ السُّنن وإيثارِ الرأى والمعقولِ عليْها لما يَرَوْنَ من طعنِهِمْ فيهَا، واغتبطُوا بالقياسِ والنظرِ لما وَجَدُوا من زهدِهم فى السنّة والخبرِ، سيَّما فى زَمانِك هذا.

والأحاديثُ فى الترغيبِ فى الآخرةِ والتزهيدِ فى الدنيا، والترهيبِ لوعيدِ الله تعالى وفى فضائلِ الأعمال، وتفضيلِ الأصحابِ ـ متقبلةٌ محتملةٌ على كلِّ حال: مقاطيعها ومراسيلها، لا تُعارَضُ ولا تُرَدُّ. وكذلك فى أهوال القيامة ووصفِ زلازلها وعظائمها لا تُنكر بعقل، بل تُتَقبَّل بالتصديقِ والتسليم. كذلك كان السلفُ يفعلُونَ، لأن العلمَ قد دَلَّ على ذلك، والأصولُ قد وردتْ به.

وقد رُوينا: من بلغه عن الله فضيلةٌ أو عَنْ رسولِ الله ﷺ وعَملَ به أعطَاهُ اللهُ ثوابَ ذلك وإنْ لم يكُنْ ما قِيل. والخَبرُ الآخر: «مَنْ رَوَى عنِّي حقًا فأنا أقولُه وإن لم أكنْ قلتُه، ومَن رَوَى باطلاً فإنِّي لا أقول بالباطل».

وفي كلِّ ما رسمناه من هذا الكتاب نقولُ: الله أعلمُ وأحْكَمُ، وعلْمُهُ المقدَّمُ، وعندَهُ حقائقُ العلومِ، وإليه تُرْجَعُ الأمورُ، وما شاءَ كانَ، واللهُ المستعانُ، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا باللهِ.

وهذا آخرُ كتاب العلمِ، وتفصيلِ العلوم، ووَصْفِ طريقِ السّلفِ، ونَشْرِ ما أحَدثَ بعَدهُمُ الخلَفُ.

* * *